صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ

د. وائل بن يوسف العريني
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ

د. وائل بن يوسف العريني

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ٨/ ٢/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٤/ ٦/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

يرصد البحث رحلة الأديب الشيخ علي الطنطاوي إلى المملكة العربية السعودية بعد توحيدها بعام واحد، إثر دعوة تلقاها أعيان الشام من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله، وهذه الرحلة نشرت في الصحف وقت الرحلة، ثم أعاد الكاتب كتابتها تذكراً في ذكرياته بعد نصف قرن.

وينطلق البحث من زاوية النظر الأنثروبولوجية ومنهج النقد الثقافي، لتلمس الأنساق المختلفة في البلاد السعودية وكيف اطلع عليها الكاتب وكيف رصدها، كما أن هذا المنهج يتيح للباحث قياس مستوى التمايز بين الذات والآخر وأوجه اللقاء والاختلاف وكيف تعامل الكاتب مع كل ذلك.

كما أن الكاتب، وهو الأديب المعروف، قد استعمل عددا من التقنيات الأسلوبية التي أسهمت في تشكيل رؤيته للأنساق وإحساسه بها، وقد راوح بين هذه المستويات مبدعا حينا، وخارجا عن سياق الرحلة حينا آخر.

وقد خلصت الدراسة إلى استجلاء شكل التطور الأولي للملكة، ومستويات العلاقات الاجتماعية، والتغير الذي حدث للمجتمع بعد توحيد المملكة حتى بدت المملكة في خضم تشكيل هوية متجانسة ملتفة حول جلالة الملك عبدالعزيز وأجهزته الإدارية التي أنشأها.

آمل أن تكون هذه الدراسة مسهمة في قراءة مشهد المملكة العربية السعودية في حقبة مهمة من حقب تأسيسها وإرساء دعائمها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في يومها الوطني الحادي والتسعين.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، الآخر، علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، النسق.

Al Jazeera's picture in Sheikh Ali Tantawi's journey During the establishment of the Kingdom of Saudi Arabia in 1934 AD

Dr. wael yuseef aloraini
Department Rhetoric, Criticism and the Method of Islamic Literature
Faculty Arabic Language
Imam Muhammad Bin Saud Islamic university

Abstract:

The research traces the journey of the writer Sheikh Ali Al-Tantawi to the Kingdom of Saudi Arabia a year after uniting the whole kingdom, following an invitation received by the notables of the Levant from His Majesty King Abdulaziz, may God have mercy on him. This journey was published at the time of the journey. also, the writer documented this journey again in his novels a half-decade from returning .

The perspective of the research is to demonstrate two methodologies one anthropological point of view and a cultural criticism approach, in which the writer observed how abroad the cultural differences in the kingdom. Moreover, this methodology allows the writer to notice the differences in cultural behaviours, and how he dealt with all these cultural differences .

The writer in his journey used different methods, which, contributed to having a clear perspective and vision, which reached out to the feelings that enable him to live the moment between the journey and the study.

The conclusion of the study is to clarify the development of the Kingdom, and the levels of social relations. In addition, the transformation that occurred to the society after the union of the Kingdom and due to great leadership by his majesty King Abdulaziz and his appointed directors. As a result, the mission of a great kingdom has started from the foundation of all government departments to the development of the railroad of the country, which connected the main cities in the Hijaz region to the Two Holy Mosques

I hope that this study will contribute to illustrating the situation in the Kingdom of Saudi Arabia in an important era from the foundation of the kingdom until today the - 91st Saudi National Day.

key words: Cultural criticism, Alterity, anthropology, syntagme- ordre.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتعد الرحلة نافذة مهمة للاطلاع على الآخر وقراءته في بلاده في عدد من تشكلاته الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها، لتقرأ شكل الذات كما يراها الآخر ويعايشها ويقرأ تنوعها الاجتماعي في مختلف شرائح المجتمع قادة ومثقفين وعامة.

ولأهمية مرحلة تأسيس المملكة في تشكيل حاضرها المزدهر فقد انطلق الباحث ليبحث عن مدونة مناسبة لتلك المرحلة، حتى وقع الاختيار على تلك الرحلة الفريدة التي قام بها الأديب الشيخ علي الطنطاوي مع ثلة من أعيان الشام في تلك الفترة عام ١٣٥٣هـ، بدعوة من جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، وكان من مميزات الرحلة ومحفزات دراستها طرافتها في الفكرة والأهمية والسبب، وكونها جاءت استجابة للدعوة والاستضافة، بالإضافة لشكل المدونة التي راوحت بين التدوين المحايث/ الآني، والتدوين التذكري بعد نصف قرن، بعد أن تطورت المملكة ونشأت المدن الحديثة، وأصبح الكاتب شاهدا على عصرين وراسما التطور بدقة حسب ما رآه وعايشه.

ومدونة البحث التي اعتمدها الباحث تنقسم إلى قسمين، قسم دونه الرحالة في وقت الرحلة وبعدها بقليل وأودعها في مجلة الرسالة ثم طبعها في كتاب (من نفحات الحرم)، والقسم الثاني المدونة التي كتبها تذكّرا بعد نصف قرن، وتحديدا في الأعوام التالية لعام ١٤٠١هـ، ونشرها تباعا في جريدة

المسلمون ثم جريدة الشرق الأوسط، ونشرها ضمن كتابه الكبير (ذكريات)، وجاءت الرحلة كاملة في الجزء الثالث من الكتاب المذكور.

وبعد بحث وجدت عددا من الدراسات العلمية بعضها يدرس الرحلة وغالبها لا يتجه إلى هذه المدونة، وهذه الدراسات هي:

١- أدب الرحلة عند الشيخ علي الطنطاوي: دراسة موضوعية فنية، وهي من إعداد الدكتورة أحلام الوصيفر، وقد طبعت لاحقا في كتاب عن نادي الأحساء الأدبي عام ١٤٣٦هـ.

وهذه الدراسة تتجه إلى دراسة جميع رحلات الشيخ وخاصة الرحلات العملية إلى العراق ولبنان ومصر، ورحلة التعريف بالقضية الفلسطينية إلى شرق آسيا، بالإضافة إلى رحلته إلى الجزيرة العربية موضوع الدراسة.

وكما هو العنوان فإن الدراسة في النقد الأدبي بتحليل المضامين تربويا وعلميا، والأدوات الفنية من الناحية الإنشائية (الفضاء والشخوص والسرد) والفنون البلاغية.

ومن هنا يفارق هذا البحث تلك الدراسة في المنطلقات والنظرة الخاصة والتركيز على الدراسة النسقية وتحليل المضامين أنثروبولوجيا.

٢- النص الرحلي في كتاب من نفحات الحرم لعلي الطنطاوي: تجلياته وجمالياته، للباحث: الدبيسي، محمد إبراهيم، وقد نشر عام ٢٠١٠م، وهو بحث قصير يتجه إلى الجانب الأدبي الجمالي ويدرس جانبا من الرحلة غير مكتمل لاسيما وأن كتاب من نفحات الحرم لا يعرض كل ما كتبه

الطنطاوي عن الرحلة، إذ عاد إلى الذكريات وأعاد تذكر الرحلة وعقد مقارنة بين واقع المملكة وقت الرحلة ووقت التذكر.

٣- ذكريات علي الطنطاوي (دراسة فنية)، للباحث الدكتور: أحمد علي أحمد آل مريع العسيري، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة أم القرى عام ١٤١٩هـ، وطبعها الباحث فيما بعد في كتاب بعنوان (علي الطنطاوي كان يوم كنت). والدراسة إنشائية تتجه إلى دراسة الكتاب بوصفه سيرة ذاتية للكاتب ولم تتطرق للجوانب الثقافية بشكل واضح.

٤- علي الطنطاوي وآراؤه في الأدب والنقد: رسالة ماجستير للباحث رائد السمهوري، وهي مطبوعة في كتاب يحمل نفس العنوان، والدراسة تتجه لجمع آراء الطنطاوي ودراستها بالإضافة لفصل كامل عن حياة الكاتب، وهي دراسة في نقد النقد.

٥- القصة في أدب الشيخ علي الطنطاوي: دراسة نقدية، للباحث الدكتور وائل العريني، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣٢هـ، وتتجه إلى فن القصة عند الطنطاوي وفق المنهج الإنشائي.

٦- التشبيه في ذكريات علي الطنطاوي: دراسة بلاغية نقدية، للباحث: إبراهيم بن عبدالله المجلي، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣٥هـ، وهي دراسة بلاغية.

وتنطلق هذه الدراسة الموسومة بـ(**صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية: مقاربة نسقية**) من

مناهج تحليل الخطاب اللساني بوجهة نظر ثقافية (أنثروبولوجية)، إذ اللسانيات (الأنثروبولوجية) مصطلح يدل على تحليل الخطاب اللغوي في سياق علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، والنظر للخطاب بوصفه ممارسة ثقافية يمكن دراسته واستنباط الأنساق منه(١).

وتقوم اللسانيات (الأنثروبولوجية) على افتراض علمي يتلخص في عد اللغة ثروة ثقافية وتتشكل من خلال الكلام/ الخطاب لتكون ممارسة ثقافية بدلالاتها وطريقة بنائها وأنساقها المضمرة أو الظاهرة، واللغة والخطاب وجوه ثقافية للإنسان الاجتماعي(٢).

ومن خلال تحليل الخطاب نتوصل إلى تحليل الثقافة وأنساقها المختلفة، انطلاقا من أن اللسانيات بمناهجها المختلفة مفاتيح يعبر من خلالها الباحث من بحث اللسان إلى ما قيل عبر اللسان وتفاعلاته تلك في أي وجه معرفي أو ثقافي كان(٣).

وقد قامت الدراسة على تمهيد ومباحث ثلاثة، حيث اتجه التمهيد إلى صنع توطئة للمدونة تقرأ طبيعة الفن الرحلي وما يتعلق به من مشكلة التجنيس والانفتاح على الأجناس واشتمالها إن جنح إليها الرحالة، ثم أهمية الرحلة وباعثها.

---

(١) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية، ألسندرو دورانتي، ص ٢١.

(٢) ينظر: نفسه، ص٢٢.

(٣) اللسانيات الأنثروبولوجية، جواد التميمي، ص ٤٤.

وجاء المبحث الأول لدراسة النسق السياسي في المملكة، وقد قدمته لكونه الباعث الأساس وسبب الرحلة، ولأن الرحالة يرصده في بداية كل مرحلة أو دخول أي مدينة، فيما جاء المبحث الثاني لدراسة النسق الاجتماعي بوصفه صورة أظهر لشكل الحياة وطبيعة المواطن السعودي في تلك الحقبة وما توافر عليه من عمل ومهام وما اشتملت عليه العلاقات من طوابع اجتماعية وعلاقات مع الآخر. فيما جاء المبحث الثالث لدراسة النسق الثقافي وطبيعته وأهميته، خاصة وأن الرحالة ممتلئ بهذا الشغف باحث عنه، لا يترك فرصة ثقافية إلا انتهزها وبحث عنها وتأمل فيها.

وفي الختام جاءت الخاتمة لتجمل أهم نتائج البحث وتوصياته حسب رؤية الباحث المجتزأة مما يتيحه المقام ويمكن إنجازه في هذا الوعاء البحثي.

آمل أن أكون وفقت في رسم صورة الأنساق ورصدها كما ظهرت في حينها أمام الكاتب وأصحابه، وأن يكون هذا البحث لبنة من لبنات الرصد الاجتماعي والثقافي لتاريخ المملكة العربية السعودية.

والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

الرحلة الفن والتجنيس:

تتشكل رحلة الشيخ علي الطنطاوي إلى المملكة العربية السعودية من عدد من النصوص المتناثرة في أكثر من سياق على امتداد زمن التدوين بين عامي ١٣٥٣هـ وقت الرحلة، حتى عام ١٤٠٢هـ آخر كتابة روى فيها الشيخ بعض مذكراته عنها.

ومن حق هذا الامتداد الطويل ألا يكون ضمن بناء نصي واحد، ولا فن من فنون الكتابة الرحلية حسب ما يعرف من الرحلات وأدبها [١]؛ إذ رحلة الشيخ علي الطنطاوي تنطلق من فن المقالة تحديداً، لتتشكل فيها الرحلة على شكل حلقات متتابعة حينا، وحلقات تذكّرية حيناً آخر، وتبثّ هذه الحلقات في عدد من الأوعية الثقافية التي كان يشارك فيها الشيخ علي الطنطاوي، فمن مجلة الرسالة المصرية، التي كان يرسل إليها المقالات وهو في المملكة، وتكتسب فيها الكتابة ميزة المعاصرة والمحايثة والرصد المباشر الدقيق، إلى وعاء النشر بعد الرحلة في المقتطف والرسالة وغيرها من مجلات مصر والشام وصحفهما. ثم بعد أن دار الزمان وانتقل الشيخ إلى المملكة معلماً ثم مقيما أصبح ينشر في جرائدها (البلاد، المسلمون، الشرق الأوسط).

---

(١) يعرف أدب الرحلة بأنه: "كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه من أحداث، مازجاً ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم". الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، ص١٨.

وتأسيساً على هذا التناثر في البناء النصي للرحلة فإن هذه الطبيعة الأدبية لموضوع رحلة الطنطاوي إلى المملكة يكتسب خصوصية ظاهرة لهذا التدوين، وملامح متنوعة لهذه الفصول أو المقاطع أو المرئيات أو الذكريات، كما أننا نلمح تبايناً حتمياً في المستويات الخطابية تبعاً لتطور الأديب وتقدمه في السن، وانتقال أسلوبه للخبرة، وما يتبعه من انتقال المشاهدات من الحضور إلى التذكر، والتفاصيل من الرؤية القريبة إلى الطيف والذكرى. ومن المعايشة المباشرة الآنية، إلى المقارنة المتأخرة بين ماضي المكان وحاضرة، وماضي التنظيم وتطوره، وعادات الآخر/ السعودي وثباتها أو تحولها تبعاً لتطور البلاد والحياة وتقدم الزمان.

إن بناء رحلة ثرية في شكل مقالات ممتدة زماناً وفكرة ووعاء ومسوغاً؛ ليحتم على الكاتب أن يعدد زوايا النظر، ويكثر تكرار المواقف استنباطاً لحكم وحكمة وعادات وأحوال غابت في مقالة لتظهر في أخرى، وغفل عنها في شبابه ليتذكرها في كهولته أو شيخوخته، وهذا ما سيفسر الكثير من التنوع والتمايز بين تشكيلات الموقف الواحد حين ترد في ثنايا هذا البحث بحول الله.

ومن مربكات التجنيس، أو مزاياه، أن الطنطاوي لا يلتزم بكتابة الرحلة/ السرد، بل يطعمها بمباشرة المقالة وتوجيهها، فيعلق، ويوجه، ويستوقف القارئ لينبهه على الاختلاف والتميز على مستوى التنظيم، أو الثقافة، أو الأخلاق والعادة، كما أنه في أحيان كثيرة ينبه القارئ، في الكتابة التذكرية المتأخرة زمنياً، إلى التحول الحضاري والتنظيمي الذي شهدته المملكة في وقتها

الراهن، راهن الكتابة بالطبع، عن ذكرى الرحلة الأولى، ليدعو المواطن السعودي إلى حمد الله وتذكر النعمة والمحافظة عليها في وجه من أوجه التوجيه الأبوي والنصح الديني الذي عرف به الشيخ في مختلف منابر الإعلام التي شارك فيها وأثراها.

وأمر آخر تختلف فيه رحلة الطنطاوي/ الموضوع، عن أدب الرحلة/ الجنس، أن هذه المقالات تُقتطع كثيراً لظروف النشر أو دواعي المناسبات المختلفة التي يلتفت إليها الكاتب أو تطلبها منه الصحيفة أو المجلة، ومن ثم نجد شكلاً خطابيا مميزا لكتابة الطنطاوي يتمثل في القطع والاستئناف والتذكير بالمرحلة السابقة التي وقفت عندها المقالة، ليستأنف منها ويكمل الرحلة أو يتمم فكرة وكأن الكاتب يفترض في المتلقي أن يحفظ المقالة ويحتفظ بها ليصل ما انقطع ويراجع درساً تعليميا.

ومن شأن المقالة أيضاً أن تلتفت للمتلقي بصورة أظهر من الكتابة الارتحالية المكتملة في جسد واحد، فالطنطاوي يجيب عن الأسئلة الواردة بعد الحلقة الماضية من حلقات الرحلة[1]، ويتنبه إلى تفاصيل لم يقلها بعد أن ذكره

(١) بدأ الطنطاوي الكتابة في مجلة الرسالة في ١٣٥٢/٨/١٦هـ. كان يكتب مقالتين في الشهر، وبينهما تصله مكاتبات القراء وردودهم إما في مكانه في دمشق، أو عبر الرسالة حيث كان الزيات يفرد صفحة للقراء في مخاطبتهم للكتاب سؤالا أو استدراكا أو اعتراضا أو غير ذلك. وفي وقت لاحق كان الطنطاوي يكتب في جريدة المسلمون والشرق الأوسط أسبوعياً، ويصرح كثيراً بتواصل الجريدة معه هاتفياً لنقل رسالة أو رجاء أو غير ذلك، بالإضافة للرسائل التي ترد إليه من القراء مباشرة وقد كان معروف مكان الإقامة، وله عنوان مباشر عبر تلفزيون مكة وكان يسجل الحلقات الإذاعية فيه بشكل أسبوعي طوال السنة، ويومي في رمضان. ينظر: الذكريات، ٣٢/٣.

أحدهم أو سأله فتذكر هو بنفسه، وهذه العناية بالمتلقي تحيل الرحلة من بناء مغلق ونص أدبي مكتمل، إلى جسد ينمو ويتفاعل، وتتدخل فيه يد المزيّن وربما عالجته يد الطبيب وشفت جراحه.

أخيراً فإن من الاختلافات بين الرحلة التامة ورحلة الطنطاوي المنجّمة المتقطعة زماناً ووعاء تلك اللفتات الاستطرادية التي عرف بها الطنطاوي، وهذه من السمات الخطابية الحاضرة في أدب الشيخ، فتبدأ المقالة بتذكر وما تلبث أن عادت للواقع وانحرفت عن عنوانها المثبت في بدايتها، فيحدث الإخلال بالوعد الضمني وتستحيل المقالة أحياناً إلى حديث عن الراهن المختلف تماما عن هدف الرحلة وهذا يرد خاصة في كتاب الذكريات ذي الخصوصية البنائية العجيبة، فالشيخ يصرح بأن كثيراً من مقالات الذكريات؛ لكبر سنه وعجزه عن الكتابة، كان يمليها إملاء من ذهنه على الكاتب عبر الهاتف، وهذا يجعله يغفل عن العنوان ويستطرد، ويستجيب للتداعي الحر دون سياج المقالة المكتوبة التي تتقيد بمساحة بيضاء إمامها العنوان وقيدها المساحة وعدد الأوراق (١).

إن خصوصية هذه الرحلة على جانب الموضوع، وجانب البناء الفني، والامتداد التاريخي للتدوين؛ لتجعلها ذات أبعاد متشعبة ثرية، يمكن من خلالها الوقوف على الكثير والكثير من التفاصيل المهمة على مستوى العادات الاجتماعية والتنظيمات السياسية بين مملكة الأمس ومملكة اليوم،

(١) ينظر: الذكريات، ٣/٢٣٩-٢٤٠.

وامتيازها يأتي أولاً من طبيعتها نشأة وتفاصيل وسبباً ونوعا، ومن كاتبها المتميز ثانياً، ومن رعايتها على أعلى مستوى رسمي في المملكة ثالثاً، حتى استوت كلاً متكاملاً يمكن أن يدرس ويحلل في مستوياته الخطابية المتنوعة وأبعاده المختلفة تأثيراً وتأثراً.

أهمية الرحلة: التزمين وأهمية المرحلة:

ينطلق الرحالة في هذه الرحلة عام ١٣٥٣هـ، أي بعد عامين فقط من تغيير اسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ليصبح: **المملكة العربية السعودية**، وبعد بضعة أعوام من توحيد المملكة [١]، ومن هنا تأتي أهمية الرحلة في الجانب الزمني منها، إذ يفد الرحالة وصحبه على المملكة وقد توحدت أطرافها واستقرت قيادتها[٢]، ليكونوا من أوائل الوفود المدعوة إلى زيارة المملكة والحرمين الشريفين، ولنلمس من خلال هذا الوفد أبرز التغيرات التي حدثت

(١) ضم جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه الحجاز بين عامي ١٣٤٣-١٣٤٤هـ، واستكمل ضم الأجزاء الجنوبية من المملكة عام ١٣٤٩هـ. ينظر: تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله العثيمين، ١/ ١٩٠-٢٠١، و ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) من مظاهر استقرار الدولة العناية بالحدود وتسمية الدولة، وقد ذكرت أن اسم المملكة قد تغير إلى المملكة العربية السعودية بعد الاسم القديم (مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها) قبل عامين من الرحلة، وقد يظن الظان أن هذا التغيير سيحتاج لأعوام حتى يسجل على اللافتات مثلا، لكن الطنطاوي ذكر صراحة شكل الحدود ولوحة تذكر اسم المملكة: "**لقد رأينا خطا ممدودا فيه السلك الشائكة، وفي وسطه لوحة مكتوب عليها (المملكة العربية السعودية)، فعلمت أني قد وصلت إلى ديار الأمان...**". ذكريات علي الطنطاوي، ٣/٧٢.

للطريق والبلدات والمدن السعودية التي عرفها الوفد أو بعضهم قبل تلك الحقبة التاريخية أو سمعوا عنها.

كما أن الرحالة وصحبه قد قدموا صورة وافية للمدن التي زاروها من حيث التركيبة السكانية، ونوع العمران فيها، ووفدوا على أميرها فوصفوا شكل الضيافة وقصر/ بيت الإمارة، ومقدار الحفاوة السعودية بالعربي المرتحل، وبدت في أفعال السعوديين كلهم -حسب إفادة الرحالة- ملامح البشر وسعادة اللقاء بالآخر العربي الذي جاء تلبية لدعوة جلالة الملك عبدالعزيز، وقصد بيت الله الحرام ومسجد الرسول ﷺ ، ومجمل هذه المشاهد يؤرخها الرحالة بالعام والشهر، وأحيانا يرصد اليوم أيضا، وهذا رصد مهم لما كانت عليه المملكة في تلك المرحلة المبكرة، وما كان فيها من أنظمة استقبال الضيوف مكتوبة كانت أو عرفية وقد توافرت الرحلة على جملة وافرة منها.

وإلى جانب أهمية الرحلة من الجهة التاريخية، فإن هذه الرحلة تقدم لنا تفصيلات كثيرة ليوميات القافلة بسبب طول المسير وكثرة التوقفات، إذ أمضت القافلة من دمشق إلى مكة ثمانية وخمسين يوماً وقطعوا من المسافة ما يزيد على خمسة آلاف كيل[1]، بكل ما فيها من وفود على الأمراء والقائمين بأعمال الإدارة والأمن في المدن والقرى الممتدة من تبوك القريات شمالا (وهي أول قرية دخلها الرحالة وصحبه) إلى مكة أقصى مرحلة وصلتها القافلة في رحلتها، وهذه الانتقال الطويل بين القرى والبادية والجبال والسهول قد آتى

(١) ينظر: من نفحات الحرم، ص ٧٦ و: ذكريات، ٥٣/٣. وفي نفحات الحرم ذكر الكاتب أنهم أمضوا في الرحلة شهرين اثنين، والتحديد بالأيام أدق.

أكله وصفاً ورصداً وتحليلاً، بل لقد أجمل وفصل الرحالة أشكال العادات الاجتماعية والثقافية ومكونات المجتمع، وشكل العلاقة بين الحاكم والمحكوم ومكونات المدن والقرى، وربما عرج الرحالة على بعض الطرائف والملامح الحضارية في بعض القرى والمدن كما فعل أمير العلا باستعمال عربة من عربات القطار الحجازي لنقل الضيوف من المدينة إلى مكان الضيافة خارج المدينة(١).

ومن الملاحظ في تدوين الرحلة أن الرحالة لم يتبع نمطا محددا في تنجيم المقالات وعنونتها، فهو مرة يعتمد الانتقال المكاني، فتكون الحلقة الواحدة لرصد سردية العبور(٢) من مكان إلى مكان، ومرة يرصد المشاهدات في عنوان صحفي الهدف منه جذب القارئ ولفت انتباهه(٣)، ومن خلال ذلك يمكن النظر إلى مدونة الرحلة الممتدة في ضوء هذا التنوع بحسب انطباع الرحالة ووعيه بمدونته ذات الرؤوس المتعددة، كما أن الباحث يمكنه أن يرصد انطباع

---

(١) من نفحات الحرم، ص ١٣٦.

(٢) في الرحلات هناك نمطان سرديان هما، سردية العبور وسردية الوصول، فسردية العبور هي: **تصوير عبور الرحالة في البلاد وانتقاله في رحلة فعلية، ويمتاز بالسرعة في السرد وطي الزمان.** ينظر: الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حليفي، ص ٢٣٠-٢٣١. ومن شأن سردية العبور أن تكون حركة الزمن فيها أكبر من حركة الأحداث والمشاهدات لأن الرحالة يستعمل تقنية الطي الزمني.

(٣) من العنوانات مثلا: وقفة في العقيق، المنزل الأول للبشر، في ساحة الإعدام، فر من الموت وفي الموت وقع، خروف برأسه، نومة في المملحة، في جوف حمار. ينظر: من نفحات الحرم، ص ٢٧، و ٤٦، و ٦٣، و٨٠، و٩٢، و٩٦، و١٠٨.

الرحالة من العادات وبعض المفارقات منذ العنوان الذي يمثل عتبة[1] دخول إلى الرصد الثقافي والنسق الاجتماعي الأبرز عند الذات حسب ما رآه الرحالة واختزنه في ذاكرته، خاصة في التدوين المتأخر في الذكريات.

أخيرا فإن هذه الرحلة تتميز بأنها رحلة تضم عددا من وجوه وأعيان الدولة السورية الذين انتقاهم ممثل الملك عبدالعزيز في سوريا الشيخ (ياسين الرواف) وهو البصير بالقطر الشامي ورجالاته وقد نشأ فيه، كما أنه سعودي يعرف البلاد السعودية وما يمكن أن يمر بالرحالة وصحبة من مصاعب؛ لذا فإن هذه القافلة بهذا التشكيل المتنوع وفق تميز ثقافي وفكري وتعليمي جعل الرحلة ثرية في المشاهدات والمواقف وإن استأثر الرحالة بمعظم تلك المشاهدات، لكنه يشير أحيانا إلى مواقف أصحابه فيسخر منهم حينا أو يرصد المفارقات حينا آخر، وكل ذلك يرجع إلى طبيعة المرتحلين ومرجعياتهم الثقافية والاجتماعية وما تعودوا عليه؛ لنقف في النهاية عند منجز أدبي وثقافي جدير بالتحليل والتمعن.

---

(١) مصطلح العتبة مصطلح بنيوي وضعه الناقد الإنجليزي جيرار جينيت في كتاب له بهذا العنوان (seuils 1987م)، وهو مصطلح ينصرف إلى عدد من المداخل للنص منها العناوين والإهداء وغير ذلك. ومن وظائف العنوان عند جيرار جينيت التعيين، وتحديد المضمون، وإغراء الجمهور. ينظر: عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبدالحق بلعابد، ص ٧٤ .

بواعث الرحلة:

الباعث العام

ينطلق الرحالة وصحبه في هذه الرحلة استجابة لدعوة قدمها لهم جلالة الملك عبدالعزيز ﷺ لزيارة المملكة وتحديدا الحرمين الشريفين، بعد توحيد الجزيرة وإطلاق اسم المملكة العربية السعودية عليها، وقد قدم هذه الدعوة معتمد الملك في الشام سابقاً الشيخ ياسين الرواف ﷺ [1]، ودعي لها عدد من أهل الشام ورجالها المشهورين، وقد وضع لها هدف محدد وهو فتح طريق للسيارات يربط دمشق بمكة، وهذا الهدف كان "**يومئذٍ حلما من الأحلام**"[2].

ومن شأن هذه الدعوة أن تغري أي رجل بالمسير، بما فيها من وجاهة الداعي (جلالة المؤسس)، وفخامة الوسيلة (المعتمد بمثابة سفير أو قنصل على الأقل)، فهي إذن دعوة كريمة لا يملك معها المدعو إلا التشوف والشوق للبدء في هذه الرحلة.

يضاف إلى هذا المحفز على قبول الدعوة كونها دعوة جماعية، دعي لها وجهاء الشام من المعلمين والعلماء والتجار وغيرهم، وكل من دعي إليها يغتبط بهذا الاختيار الخاص وهذه التجربة الفريدة التي على وشك الحدوث.

ومن خصوصية الدعوة أن تكون دعوة للارتحال بالسيارات، لتكون القافلة أول قافلة تطأ الجزيرة العربية وتتجه للحرمين بالسيارات، وفي هذا ما

---

(١) ينظر: ذكريات علي الطنطاوي ٣/٥٥.

(٢) السابق، ٣/٥٦.

فيه من التحفيز على السبق الخاص، واستعمال وسيلة جديدة لم تعهد من قبل.

لقد كانت هذه الدعوة من أعلى سلطة في الجزيرة العربية بعد توحيدها واستقرارها، وأوصلها ممثل الملك في الشام، واقتُرِحت فيها الوسيلة الناقلة، محفزات عامة لجميع أفراد الرحلة الذين لم يترددوا في قبول الدعوة والتجهز لها، والتشوف ليوم الانطلاق الذي تأجل كثيرا بسبب بعض المعوقات المادية أو حتى الأسباب الشخصية الطريفة كما سيأتي.

الباعث الخاص

أما على مستوى كاتب الرحلة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله فقد انطلق في هذه الرحلة من باعث خاص يضاف إلى الباعث العام الذي يستوي فيه كل أفراد الرحلة من الوجهاء الآخرين، وهذا الباعث هو الباعث الدينية وتحديدا العاطفة الدينية التي نشأ عليها الشيخ، يقول: "**ما إن عرض علي الشيخ ياسين** رحمه الله **الأمر حتى وافقت، وافقت بلا تفكير، تصورت أني أتوجه كل يوم خمس مرات إلى الكعبة، وبيني وبينها الآماد البعاد، والجبال والرمال، والمسافات الطوال، فأحن إليها، ويهفو قلبي على البعد إليها، فهل أستطيع وقد عُرض علي الوصول إليها والطواف بها، والتعلق بأستارها، أن أقول لا؟...**"[1].

واستمر الرحالة يؤكد هذه المعاني على الرغم من صعوبة هذه الرحلة عليه وعلى وضعه الاجتماعي ومسؤولياته الكبرى وهو اليتيم الذي يتولى أمر أسرته نفقة ورعاية وحماية.

كما أنه وافق على المسير في هذه الرحلة لأنه يظنها أمنية لن تتحقق[2]، ولم يشأ أن يرد هذه الدعوة التي خصه بها صديقه الشيخ ياسين الرواف، وهو الذي عرفه من قبل ودعاه ليخطب في المعتمدية مما أغضب منه أهل بلده حينا من الدهر[3].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٣/٥٧-٥٨.

(٢) ينظر: نفسه.

(٣) ينظر: نفسه، ٣/٥٥.

إن موافقة الطنطاوي على المضي في هذه الرحلة إذن يكتنفها الشك مع الرغبة الملحة، ويضاف إلى ذلك تلك المزية التي اختص بها الكاتب دون غيره وكان يومئذ من أصغر أفراد الرحلة [1]، مما يجعل الطنطاوي يمضي إليها مغتبطا بالهدف وسبب الاختيار وداعي التميز فيها المتمثل في نوع الرحلة والداعي لها ووسيلتها وما يمكن أن تحرزه للمجموعة من السبق والريادة التاريخية التي لن تنسى.

لقد جاءت بواعث الرحلة العامة والخاصة محفزا لنجاح الرحلة وإحدى أسباب قيامها الناجح، وأثمرت من ثم حدثا تأريخيا واجتماعيا وأدبيا، وكانت مادة هذا الحدث ثرية على المستوى السياسي والاجتماعي والتنظيمي والأدبي، وكانت فاتحة خير للرحالة وصحبه، كما أنها سهلت شق طريق الشام من مكة المكرمة وآتت أكلها بعد حين، وأثبتت أن السيارات يمكن أن تصل إلى مكة المكرمة وتختصر الزمن لنقل الحجاج وضيوف بلد الله الحرام

(١) الرحلة انطلقت عام ١٣٥٣هـ وعمر الكاتب ٢٦ عاما فقط.

المبحث الأول: النسق السياسي[١]:

كانت المملكة العربية السعودية وليدة أعوام قليلة حين زارها الكاتب إذ لم تتوحد جغرافيا إلا قبل الزيارة بثمانية أعوام تقريبا، وقد اكتست باسمها المميز قبل عامين فقط من الزيارة[٢]، ومن شأن هذا التأسيس أن يغري الكاتب

---

(١) يطلق النسق (بالفرنسية syntagme, ordre) في بعض السياقات ليدل على النظام الكامن غير المعلن، وقد يكون النسق اجتماعياً وثقافياً أو سياسياً أو لغوياً أو جمالياً أو غير ذلك. ولكل نسق وظيفة يؤديها غالبا في بيئة النص أو المؤلف ومجتمعه أو عند الآخر ومجتمعه. ينظر: قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، ص ١٦١.

وفي الدراسات الثقافية تحديدا يقدم النسق وظيفة كبرى في كشف الأنظمة القارة في المجتمعات الإنسانية، التي يتواضع عليها الأفراد دون اتفاق معلن، وتنتظم في ضوء ذلك الكثير من التفاصيل الحياتية لديهم، في بناء الأسرة وتقاليد الضيافة وشكل الأحكام العرفية العامة، كما أن النسق يحكم الممارسات الثقافية التعليمية والتثقيفية، ويجري من خلاله نقل المعرفة غير المدونة وغير ذلك.

ويحتاج النسق غير المعلن، وهو الذي يعني الدراسات الثقافية تحديداً، إلى عمق في المعايشة أو تحليل الخطابات الشفاهية والمكتوبة؛ إذ يكمن السياق أحيانا بين السطور ومن خلال خطوط التماس، ويقدم الراصد الاجتماعي هذه الأنساق بوعي أو بغير وعي من خلال رصد المشاهد ونقل الأحداث وتصوير بعض المظاهر والمناسبات، ومن ثم يقدم المشاهد/ الرحالة في حالتنا هذه، جملة من الأنساق الاجتماعية عند المجتمعات المرتحل إليها، وربما كانت هذه الأنساق مخفية قصدا عن المختلف الوافد لا تكشفها إلا الأحداث والمواقف والمناسبات وغيرها.

ولأهمية النسق اقترح د. عبدالله الغذامي إضافة وظيفة سابعة للوظائف الست عند جاكبسون، وهذه الوظيفة هي الوظيفة النسقية، يضطلع بها النقد الثقافي تحديدا؛ لأنه يهتم بالمضمر في النصوص والخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي، وينتقل دلاليا من الدلالات الحرفية والتضمينية إلى الدلالات النسقية. ينظر: النقد الثقافي، د. عبدالله الغذامي، ص ٦٥.

(٢) في عام ١٣٤٠ دانت الجزيرة العربية للملك عبدالعزيز فيما عدا الحجاز، وفي عام ١٣٤٥ دخل الحجاز في حكم الملك عبدالعزيز وأصبح الملك عبدالعزيز يسمى ملك الحجاز وسلطان نجد

بتأمل ملامح النسق السياسي للمملكة، ولاسيما أن الرحلة كانت بدعوة رسمية، والداعي هو الملك وقد نقلها المعتمد الذي يعد بمثابة سفير الملك في سوريا، والكاتب ينطلق في رصد النسق السياسي وقد امتلأ قناعة بهذه الدولة الفتية –حينها– التي نشأت وتوحدت بفضل الله ثم نباهة مؤسسها الملك عبدالعزيز واستمرت بفضل الله ثم حسن سياسة وإدارة أبنائه: "**لقد وضع عبد العزيز الأساس وأرسى الدعائم، وجاء أولاده يعلون الجدران، ويقوون الأركان ويجملون البنيان، مهتدين إن شاء الله بهدي القرآن**"(١). وإذا كان هذا الخطاب خطاب القناعة فقد اكتسى بفن القول البليغ التصويري الذي نقل الفكرة الذهنية لصورة محسوسة مع الاستعانة بالتحسين القولي (السجع)، كما لم يغب عن الكاتب في هذين السطرين أن يختصر في الخطاب منهج الدولة، وانتقال الدولة من البناء إلى القوة ثم التحسين، مع وجود كشاف طريق يتمثل بالهدي الإسلامي القرآني.

وحضور النسق في الخطاب يتضح من خلال عبارات الإرساء والبناء وعلاقته بالجانب البشري/ الحاكم، فعبدالعزيز معادل لمهمة الإرساء والغراس،

وملحقاتها، ثم صدر الأمر الملكي الكريم في عام ١٣٥١ بتوحيد المملكة العربية السعودية وإطلاق هذا الاسم عليها. ينظر: موقع رؤية ٢٠٣٠: https://cutt.us/3lekI

(١) الذكريات، ١٢٥/٣.

وأبناؤه معادل لمهمة البناء (العالي)، وكأن الرحالة يمرر جملته الثقافية منذ البداية بإبراز نسق الحكم الملكي وفوائده التي تبدت في الجزيرة العربية بين زمن الرحلة وزمن التذكر.

ولعل الحديث عن النسق السياسي يبدأ منذ مشروع الرحلة أو فكرة الرحلة إن صحت التسمية، إذ الفكرة بدأت من دعوة الملك عبدالعزيز بواسطة أحد موظفيه الموفدين إلى الشام وهو (ياسين الرواف) كما أشرت في تمهيد هذا البحث، وهذا النهج من الملك عبدالعزيز رحمه الله يدل على وعي سياسي بقيمة الدولة، وقدرتها، وممارساتها في استضافة الشخصيات ودعوتهم للزيارة، وهذا بدأ منذ توحيد المملكة كما هو الحال هنا، فهذا دليل على أن النسق السياسي ناضج منذ البداية.

كما أن النسق يتضح من تعيين سفير للدولة عند الآخرين يعمل في سفارة تسمى (معتمدية)، وأنى كانت الأسماء فإن الحصيلة واحدة وهي النيابة عن الملك في إبلاغ الرسائل وتوجيه الدعوة وطمأنة الضيوف برعايتهم واستضافتهم والترحيب بهم ضيوفا على الدولة.

بل إن الكاتب قد أشار إلى أمر سابق ربما قبل توحيد المملكة، وهو قيام المعتمدية بالجانب الإعلامي والدفاع عن الدولة، وهي ممارسة سياسية ناضجة ومشروعة كما هو العرف الدولي اليوم، فقد أقامت المعتمدية حفلاً، وشارك علي الطنطاوي فيها بخطبة أوضح فيها أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

ليست بدعة بل هي دعوة سلفية لها أصل راسخ، وغضب عليه أعيان ومشايخ دمشق وقتها[١] .

إن خطاب الطنطاوي في سرد هاتين المعلومتين يوضح أن الدولة كانت متقدمة من الجانب السياسي (الدبلوماسي)، فالصلاحيات واضحة، والجهد مثمر، والسمعة للمملكة آخذة في الرسوخ، مما يدل على خطوات دقيقة تتخذها المملكة في حداثة وقتها ونشأتها.

كما أن اعتراف الآخر بالدولة نسق كامن في الخطاب يظهر في الاعتداد بالدعوة، والاستجابة لها، ويظهر أيضا باستذكار الماضي ودخول الكاتب في دائرة الاتهام في مجتمعه؛ لأنه شارك في مناسبة دولية تابعة للمملكة، يقول فيها ما يعتقده ويشهد شهادة الحق في سبيلها.

وعندما بدأت الرحلة فعليا ودخل أفرادها أرض الجزيرة العربية علموا بأنهم قد صاروا في أمان من الاستعمار الذي هربوا منه ومن حراساته إذ إنهم لم يقوموا باستكمال أوراق السفر فيما يبدو، وهنا أيضا نجد دلالة على التقدم السياسي الجغرافي للمملكة رغم حداثة سنها وقلة إمكاناتها، ووفق المتاح والممكن أيضا، يقول الكاتب: " **كنت أعجب من سيارات أبي حنيك، [ضابط إنجليزي اسمه غلوب] كنت أعجب منها، لماذا لم تتعقب سياراتنا وأثرها ظاهر يراه كل ذي عينين، فكيف بالخبراء من رجال الجيش؟.**

(١) ينظر: ذكريات، ٣/ ٥٥-٥٦.

وسرعان ما جاء في الجواب: لقد رأينا خطاً ممدودة فيه السلك الشائكة، وفي وسطه لوحة مكتوب عليها «المملكة العربية السعودية»، فعلمت أني قد وصلت إلى دار الأمان"[1] وفي وصف آخر قال: **"...استبشرنا وشعرنا بالاطمئنان، وذهبت علائم الكدر من وجوهنا، وخالطنا سرور عجيب، لا أدري أكان ذلك لأنا دخلنا في أراضي الحجاز، فهاجنا الشوق إلى هاتيك المعاهد، أم لأننا وطئنا أرضاً لا يسيطر عليها أجنبي ولم تمتد إليها رذائل الحضارة الأوروبية، فهي عربية مسلمة"**[2].

إن وجود الحدود بوضوح دليل على ضبط أمني لأرض المملكة لم تخطئه عين الكاتب، واللافتة التي تعلن هوية الدولة أمر دعاه إلى الاعتزاز، ووجد منه روح الأخوة الإسلامية والعربية والفخر بأن هذا الجزء الغالي من البلاد الإسلامية العربية جزء لم يدنس، وأنساه هذا الاعتزاز تلك اللحظات العصيبة المشوبة بالحذر والخوف من لحاق الضابط الإنجليزي وأفراد ثكنته بالركب المرتحل. وهنا نجد الخطاب بعد ذلك يهدأ لأنه خطاب الضيف الآمن، بعد أيام من الحذر والترقب وخوف الضياع، بل وخيبة الأمل من الأدلاء وقلة المعرفة.

وأمر آخر يبدو واضحا من فيض الأمان والاعتزاز الذي بدا عليه الكاتب، والركب بطبيعة الحال، إنه الشعور بالانتماء للدولة السعودية انتماء

---

(١) السابق، ٣/٧٢.

(٢) من نفحات الحرم، ص ٨٧.

أخوة عميق، وشعور باللحمة الحقيقية بروابط الدين واللغة، والاعتراف بالزعامة الحقيقية لمؤسس المملكة العربية السعودية طيب الله ثراه، هذا الأمان الذي تبدى في الخطاب بشكل مباشر (شعرنا بالاطمئنان)، وفي النص على الروابط العميقة (عربية، مسلمة)، واستحضار المكان العزيز على النفس لدى الكاتب والقارئ على السواء (أراضي الحجاز) الذي يبعث الشوق في النفوس كلها، المهم أن هذه الظروف المتعددة في راهن الرحلة قد أكدت مشاعر الكاتب وأصحابه بدءا من الاطمئنان وانتهاء بالسرور العجيب الذي لم يظهر على الوجوه بل خالط النفوس بكل ما تحمله مفردة المخالطة من معنى، وبعد هذه الرحلة بنصف قرن تقريبا يعود الكاتب لاسترجاع تلك اللحظات ليؤكد هذا الأمان الممتد منذ ذلك الحين فيقول: "**البلد الذي خلق حراً، وعاش حراً، وبقي حراً**"(١). ونلحظ هنا أن لفظة الحرية تتكرر بكل ما لدلالة التكرار من معاني التوكيد والترسيخ، وهو توكيد يستعرض الزوايا والأجزاء ليقرر حرية المكان في الماضي والحاضر والمستقبل، بألفاظ التكوين: **خلق**. والوجود: **عاش**. والثبات: **بقي**.

والكاتب قبل تلك اللحظات قد ربط المكان بالزمان ربطا طريفا؛ حين سرد خبرهم مع الأعرابيين اللذين توليا مهمة الإبلاغ بأن المكان تغير والظروف التي يعيشها الركب قد تحولت إلى الأفضل، فحين سألهما الكاتب عن شأنهما أخبراه بأنهما يبحثان عن جمل ضال، مما جعل الكاتب يعود إلى

(١) الذكريات، ٣/٧٢.

الماضي وكأن الجزيرة عادت لسالف عصرها وعاش في الآن ما كان يقرأه في الكتب: "**فأحسست أني دخلت البادية حقا، بل لقد شعرت أنني دخلت التاريخ أعيش فيه، إن تاريخ العرب الاجتماعي والأدبي يعيش اليوم في باديتهم حاضراً يُرى لا ماضيا يُروى!**"(١).

وربما كان خطاب الكاتب موهما بأن الجزيرة تعيش تخلفا تاريخيا في تلك الحقبة، لكن الخطاب السابق حول نقاء المملكة وسلامتها من الاستعمار وما تفيض به من الأمان والاستقلال أبلغ دليل على نفي الفكرة، أما هذا الخطاب في توصيف تأريخية السلوك وعمقه فينسجم بشكل كبير مع تاريخ الكاتب واعتزازه العربي وتماهيه مع التراث وحب الأدب العربي وتوقه للأصالة والماضي يتبدد عنده هذا الوهم ويعلم أن الكاتب يعيش لحظات شاعرية مفعمة بالعاطفة والاستمتاع بمعايشة المكتوب عيانا وقد ذكر هذا صراحة هنا، بل وسطره في مقالة طويلة في مكان آخر(٢).

وفي هذه المواضع وغيرها تظهر أنساق كامنة في خطاب الكاتب، تلك الأنساق التي تقارن حال الذات/ الكاتب مع حال المملكة، وما تتسم به من الاستقلال والمواقف الأصيلة التي لا يظهر فيها تسلط المستعمر وأعوانه،

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٨٧.

(٢) أقصد مقالة (حلم في نجد)، وهو كتيب مطبوع بشكل مستقل، وأيضا يعد جزءا من كتاب صور وخواطر، وللوقوف على شاعرية الفكرة يكفي أن نتأمل التعبير بالحلم في العنوان وما يفيض به من دلالات الشاعرية والانعتاق عن الواقع والتماهي مع الرغبة. ينظر: حلم في نجد، علي الطنطاوي.

المكان الذي يرحب بالزائرين، ويشعرهم بالأمان، بل تتعدى مزاياه جانب المكان فتغدو جوا من الأنس والبهجة تحلو الكدر وتطرد علائم الخوف والترقب.

وما نزال على الحدود السعودية حيث وقفت القافلة الزائرة عند مخفر الحدود وهنا نرى شكلا من أشكال التنظيم السياسي للحدود السعودية وكيفية الدخول النظامي آنذاك، وكان لباس حرس الحدود لا يختلف عن اللباس الاجتماعي إلا في وجود السلاح المعلق على الكتف وحزام الرصاص، والسلاح جديد : "**ويتنكبون بنادق جديدة رأينا عليها كتابة فقرأناها فإذا هي: (وقف لله تعالى وقفه عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود)**"[1].

وفي موقف آخر يرصد الكاتب شكل التنظيم السياسي للمدن والبلدات وإدارتها في بداية الدولة، إذ نجده في البداية يتوقف في القريات ليقدم لنا هذه الملحوظة: "**والقريات اليوم إمارة. وهي مقر الأمير، ومما رأينا في الحكومة**

(١) من نفحات الحرم ص ٨٧. ومن دلائل النسق السياسي الحديث في المملكة امتزاج الموروث الثقافي في الضيافة مع التنظيم الدولي لدخول الأجانب ورصد هذا الدخول ووضع ما يثبت ذلك من الختم الرسمي: "...**خبرهم خبرنا، وأعطاهم جوازات سفرنا، فوضعوا الخاتم عليها، ولما اطمأنوا إلى أنهم أدوا واجب الوظيفة الرسمية، تفرغوا لأداء واجب الضيافة العربية**" الذكريات، ص ٧٤.

السعودية أنهم يسمون كل من يلي مدينة مهما صغرت أميرا. لا فرق في ذلك بين أمير القريات هذه وبين أمير المدينة المنورة"[١].

ويبدو أن الكاتب لم يعجبه اتفاق التسميات مهما اختلف شكل المدينة وحجمها وأهميتها وقد ذكر ذلك صراحة فيما بعد[٢]، وهذا النسق تغير فيما بعد، ولم يعد ممكنا إطلاق لقب (أمير) على رئيس المركز أو المحافظ، واقتصر اللقب على الإمارات المختلفة في تنظيم شؤون الدولة الداخلية في وقت لاحق[٣].

وفي سياق آخر وإن كان متصلا بالجانب السياسي فقد أشار الكاتب إلى نسق سياسي فريد كان يعرفه عن الملك عبدالعزيز معرفة وثيقة، ويتمثل في تلك العناية الخاصة بالمثقفين وكتاب الصحف العرب، فقد كان الكاتب، وبحث من أحد وجهاء الشام، يكاتب الملك عبدالعزيز في بعض الشؤون العامة فيأتيه الرد المباشر من الملك بنفسه، يقول: "**كنت أعرف عن الملك الكثير، وكنت أكتب إليه ويتفضل فيجاوبني، جرأني على الكتابة إليه**

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٩٠.

(٢) قال في الذكريات: "ولو أنهم عددوا الألقاب بتعدد المنازل والولايات لكان في رأيي أحسن". ص٣/٧٦.

(٣) صدر نظام المناطق في ١٤١٢/٨/٢٧هـ. ينظر موقع هيئة الخبراء بمجلس الوزراء:

شيخنا الشيخ بهجة، وكنا نجعل عنوان الرسالة (إلى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود)، ما كنت أطلب شيئاً لنفسي، كانت رسائلي كلها في أمور فيها مصلحة للناس، ورضا الله، أو وساطة لأصحاب حق، وكان يأتيني جوابه الكريم في كل مرة"[1].

إن هذا النسق التواصلي مع الآخر العربي يدل على اطلاع الملك ومتابعته الدقيقة لما يرد، وتواضعه في الرد على الكل، بما يعد سمة مميزة تحفز على الاتصال به والتواصل معه، والدعاية القوية للمملكة بوصفها حاضن الشؤون العربية والإسلامية، ومرجعا حقيقيا وسندا لجميع الأشقاء في الوطن العربي، وهي سمة ما تزال إلى اليوم شاهدة على الأصل الأساس في العناية ورعاية الأخوة مهما بدت من الآخرين الجفوة أو الأخطاء التي تقابل بالعفو كما هي عادة كرام النفوس.

وفي لقاء الملك عبدالعزيز رحمه الله نسق ذاتي أيضا يدل على اتصال وثيق بين طبيعة الملك الخاصة والتكوين العربي الأصيل للملك، يتضح هذا في الحفاوة في اللقاء، واستقبال القادمين وقوفا، وعدم تمييز نفسه بمقعد مختلف عن الآخرين، والمزج بين العلم ومجلس السياسة كل ليلة فيجري في المجلس حوار علمي ودرس ليلي يشارك فيه الملك مشاركة فاعلة[2]، ومن طبيعة هذا المجلس الحوارية يتبدى لنا النسق السياسي الحواري الذي يعد ميزة للحكم

---

(١) الذكريات، ٣/١٣٧-١٣٨.

(٢) نفسه.

السعودي وعلامة فارقة كانت أساسا لبناء المراكز الحوارية الخاصة والعامة مثل مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني وما نشأ عنه من ندوات وملتقيات ثرية.

أخيرا فيحسن أن نقرأ وجهة نظر الكاتب حول شخصية الملك عبدالعزيز رحمه الله، وهو رأس الهرم وصاحب الدعوة وأقوى ملوك العرب ورؤسائهم في تلك الفترة، يقول عنه الكاتب بعد أن جالسه مرات عدة ورأى منه عدة مواقف في السياسة والضيافة والعلم: "**لقد كان الملك عبد العزيز رجلا من أفذاذ الرجال، ذكاء فطري يصغر أمامه كبار الأذكياء، وفكر نير يطوي أفكار العلماء، وقدرة نادرة على سرعة الفهم، والقدرة على الإفهام، يدرك مرادك قبل أن تتم كلامك، ويلخص في جمل معدودات ما يحتاج إلى محاضرات، شهد روزفلت أنه فهم منه في مجلس واحد عن قضية فلسطين، ما لم يفهمه من كبار الساسة في سنين، تواضع ولين حين يخشى اللين، وشدة حين لا ينفع إلا الشدة، خبير بنقد الرجال ومعرفة معادنهم، رحمه الله فلقد كان أحد عباقرة التاريخ**"[1].

إن إعجاب الكاتب بالملك عبدالعزيز يعد صورة عن إعجاب الكثيرين في تلك المرحلة بشخصية الملك عبدالعزيز التي جمعت مزايا عدة وصفات يندر توافرها في شخصية إنسانية، ثم هي شخصية استطاعت الظفر وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية واحدة، ونرى في وصف الكاتب للملك عبدالعزيز رحمه الله إلحاحا على الثنائيات الوصفية التي تكون إما متقابلة أو متناظرة، فالملك

(١) السابق، ص ١٣٩.

عبدالعزيز قدرة على الفهم وقدة على الإفهام، الإدراك قبل التمام وتلخيص الكثير من الكلام، تواضع وشدة ولكل صفة سياقها المناسب.

لقد لخص الكاتب في هذه الفقرة الكثير عن شخصية الملك عبدالعزيز بما يقدم لنا صورة عن نسق الحكم الذي يتوقع من هذه الشخصية، بذكائها وبعد نظرها وحرصها على اللباقة مع الناس واختصار الوقت والقدرة على الإبانة عن الأفكار وغيرها، فلم يبق إلا اختيار الطواقم الإدارية والعسكرية لإجادة الحكم والنهوض بالمملكة وهو ما كان وننعم به اليوم من مكانة سياسية وعمق عربي وإسلامي وتأثير عالمي لا يخفى.

وبناء الخطاب في هذه الفقرة يعمد إلى السجع القصير واختصار الجمل يتناسب مع شخصية الموصوف التي تختصر الزمان والمكان والفكرة، مع العناية بجانب الوضوح في الخطاب إذ هي شهادة للتاريخ وليست استعراضا أدبيا يحتاج إليه الكاتب أو ينشده.

المبحث الثاني: الأنساق الاجتماعية:

مر الكاتب في رحلته بمختلف مدن المملكة وقراها الواقعة على الطريق بين الشام ومكة المكرمة، وبقي في بعضها أياما ضيفا على الأمير والأعيان، ودعي هو وصحبه إلى العديد من الموائد والمناسبات، وأتيح له التجول في المدن والقرى ورؤية الأسواق والبيوت وغير ذلك.

والكتابة عن بعض هذه الحوادث والأحوال تضعنا أمام جملة من الأنساق المختلفة التي تعد في مجملها أنساقاً اجتماعية مختلفة بين الشمال والغرب، وأحوال المدن والقرى، وعادات الأمراء والوجهاء في كل مدينة أو بلدة أو قرية.

وأول ما صادفه الرحالة في هذا الموضوع الاجتماعي الجوانب الدينية التي لم تخطئها عينه أنى اتجه في الجزيرة العربية، فمشهد الأذان وما يترتب عليه من تغير سريع في شكل النشاط الإنساني أمر ملاحظ في مختلف أنحاء المملكة، ففي مكة المكرمة رأى الرحالة ما تعجب منه: "**كان من المشاهد المألوفة سنة ١٣٥٣هـ أن أسمع الأذان فأرى البياعين يتركون دكاكينهم مفتوحة، يضعون في مدخل الدكان كرسيا، أو يجعلون فوق البضاعة عصاً، حتى أن الصرافين وأمامهم أكوام الريالات، وأنواع العملات يتركونها، أو يغطونها بقطعة من القماش ويذهبون إلى المسجد، فلا يمس ما تركوا أحد، ولا يخطر على بال أحد أن يمسه**"[(١)].

(١) ذكريات، ١٤٥/٣.

إن مشهد الاستجابة الفورية للصلاة لا يأتي وحده هنا، بل إن هذا النسق من امتثال الدعوة إلى الصلاة يأتي سريعاً بحيث لا يملك معه صاحب الدكان أن يفرط في الزمن فيحرز بضاعته ويغلق الدكان، امتثالا لداعي الرحمن إلى الصلاة، ويقينا بأمان المكان وأمانة المجتمع ومحافظتهم على حقوق الآخرين وممتلكاتهم.

والكاتب هنا ينقل هذه الحادثة مؤكدا على النسق وعمقه بحيث أن الزائر يدرك ذلك بشكل واضح، فعبارة (المشاهد المألوفة، فأرى، حتى إن، فلا يمس ، ولا يخطر على بال أحد أن يمس)، وكلها توكيدات خطابية على هذا النسق المتجذر في المملكة وجوار البيت الحرام وبشهادة الرحالة ويقينه بأن هذا النسق يحترمه الجميع فلا أحد يفعل، ولا يفكر بفعل تنتهك فيه ملكية التاجر أو تخرب به بضاعته، بل التأكيد الخطابي يوصلنا إلى أبعد من ذلك فنتيقن أن المجتمع بأفراده كافة لا يقتربون من الدكان في غياب صاحبه ولو لتقليب البضائع ورؤية ما يمكنهم شراؤه لاحقا.

لقد جاء الخطاب هنا مؤكدا للنسق من خلال فكرة إلف المشهد، ورؤية النسق متمثلاً مشاهداً لا مروياً مسموعاً، ومؤكداً بالأدوات اللغوية: الغاية المؤكدة (حتى إن)، والنفي المتكرر: لا يمس، لا يفكر أن يمس، وفي النص على التفكير بعد الفعل مبالغة أخرى لرسم تجذر النسق وتمكنه في المجتمع.

وفي وقت الصلاة لا ترى أحدا يمشي في الطريق، الجميع متجه إلى الحرم للصلاة منذ شرع المؤذن في الدعوة إليها. وهذا الأمان (العجيب) حسب وصف الكاتب جاء من طريق واحد، هو : "**إقامة حدود الله، وتنفيذ**

شرعه"[1]. ومن شواهده تلك الحادثة التي رواها الكاتب لإقامة حد القصاص في مكة والسرقة[2].

إن هذا النسق الذي يشهد عليه الكاتب ويؤكده ليقدم للقارئ نسقا مختلفا مسكوتا عنه بمثابة النسق المعكوس، إنه نسق وطن الكاتب الذي لا يؤلف فيه مثل تلك المشاهد، فإلف هذه المشاهد في مكة شيء لا يعهده الكاتب في بلده وينظر إليه نظر الراغب به المتشوق إليه، ومن ثم فإن هذا الخطاب يحمل نسقا مضمرا منفيا عن الذات/ ذات الكاتب، وهو نسق غير مرغوب ويأمل في زواله ومشابهة نسق المرتحل إليهم، ودلائل نجاح النسق ظاهرة في الأمان وإلف المشهد ونعمة التدين.

وفي سياق آخر ذكر الكاتب أنه في كل بلدة يجد المسجد في صورة واحدة تقريبا، مبنى تكثر فيه العمد، منخفض السقف من الجريد وجذوع الشجر أو النخيل، ومفروش بالبطحاء[3].

---

(١) ذكريات، ١٤٥/٣.

(٢) ينظر: نفسه، ١٤٥/٣-١٤٦. والحادثة بتمامها منشورة في كتاب من نفحات الحرم، ينظر ص ٦٣٠٦٧.

(٣) ينظر: من نفحات الحرم، ص ٩٤، و ١٣٧. و: ذكريات، ٨٢/٣. وقد اعترض الكاتب على عدم فرش المساجد؛ واحتج على من قال بأن ذلك مخالف للسنة، لأنه وجد البيوت مفروشة بالفرش والبسط والمسجد أولى بالنظافة ودفع الأذى عن المصلين ومنع دخوله بالأحذية النجسة. ينظر: نفسه، ٨٢/٣-٨٣.

كما أن من النسق الديني الذي وجده الرحالة شيوع التدين بين أفراد المجتمع، ووقوفهم عند حدود الله، وأمانتهم التي وردت في حادثة فقدان المتاع التي سردها الكاتب(١).

وفي جانب آخر فقد لقي الكاتب من الأنساق الاجتماعية الكثير، منها اللباس، وعادات الضيافة، وبعض الأنشطة التجارية المتعلقة بالغرباء وغيرهم، ففي مكة مثلا وصف الرحالة لباس الناس واختلافه تبعا لاختلاف مكونات المجتمع المكي وانصهار الجميع في مكان واحد، حيث بدى الاختلاف مهضوما ومتفهما عند الذات أكثر مما بدا للآخر الذي رصد هذا التنوع في خطاب متعجب إلى حد ما، يقول: "**وأطللت على الناس، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزي، فمن رجل على رأسه عقال أسود على صماد أحمر، قد التحف بعباية رقيقة، على ثوب أبيض [الزي السعودي**

(١) ينظر: ذكريات، ١٤٥/٣، ومما يؤكد النسق واستقراره على الرغم من حداثة الدولة السعودية ما طمأن به أمير المدينة الكاتبَ والمعتمدَ ياسين الرواف بأنهم سيجدون حقيبتهم المفقودة حيث سقطت منهم، يقول الكاتب: "**فلما رجعنا ومررنا بالمكان الذي قدرنا أنها سقطت فيه لم نجدها، فقال الرجل الذي أرسله الأمير معنا: إذا كنتم قد فقدتموها هنا فإنكم ستجدونها. وجعل يدون معنا ويتلفت، فرأى في الرمل الناعم المتموج بقعة عالية، فأدخل يده فيها، فإذا الحقيبة قد غطاها الرمل، وهي على حالها**". نفسه. وفي كتاب من نفحات الحرم وصف الكاتب الأمان أثناء السفر فقال: "**وركبنا بعد السيارات ، فكنا نرى في الطريق الأربعة أو الخمسة من الرجال ماشين على الإبل من مكة إلى المدينة ، أو من المدينة إلى مكة ، وترى الرجل الواحد يمشي منفرداً في ظلام الليل . في طرق لا يعرفها وأرض لا يألفها ، والمرأة الواحدة تمشي منفردة لا يعتدي عليها أحد . ولا تخشى إلا الله**". ص ٤٤.

المعروف]، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من العثنون وهلالاً دقيقا من تحتها... وهذا هو النجدي.

ومن رجل يلبس ثوبا رقيقا، فوقه رداء قصير (جاكيت) من قماش هفهاف، وعلى رأسه قلنسية (طاقية) بيضاء... وهذا هو الحجازي.

ومن رجل وسخ الثياب ممزقها، لا تدري عن ثيابه ما لونها وما هي، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال، وهذا هو الأعرابي.

ومن رجل يلبس ثوبا متقن الصنع عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب، أو يلبس بدل الثوب حلة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية إلا قليلاً منها، وهذا هو السوري.

ومن رجل على رأسه عمامة ضخمة، كعمائم السلاطين من آل عثمان... وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة، وله لحية كثة مستديرة وشاربان طويلان، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض تبلغ الكعبين... وهذا هو الهندي.

ومن شاب حليق الوجه كله نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر لفها على خصره النحيل ... وارتدى عليها رداء قصيرا رقيقا... وهذا هو الطالب الجاوي، وما أكثر هؤلاء الطلاب في مكة.

ومن ...ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى"[1].

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٦٤-٦٥.

إن الرصد السابق للأزياء المتمازجة في مكة المكرمة ليدل على استيعاب المختلف في مكة منذ بدء نشأة الدولة دون مضايقة، ولقد كان الكاتب يشهد هذا التمازج من مكان رفيع هو شرفة نائب الملك على الحجاز الأمير فيصل (الملك فيصل رحمه الله)، كما أن الكاتب ينسج خطابه على تيمة الاختلاف والتمايز والمرجعية التي استطاع من خلالها معرفة الانتماءات العرقية لكل حاضر من حضور هذا المشهد المهم في يوميات أهل مكة بدليل كثرة الحضور وازدحامهم، وصعوبة حضور الكاتب لهذا الاحتشاد أو رؤية المشهد إلا بوساطة الشيخ (ياسين) الذي تعلق به الكاتب وولج من خلاله إلى مجلس نائب الملك ورأى المشهد من شرفته(١).

وتطل الألوان على المشهد لترسم التمايز اللوني الذي ينتظم التمايز العرقي والجنسي واللغوي المسيطر على الكاتب، فاللون الأبيض لا يخلو منه زي من الأزياء فيما يبدو، وهذا دلالة النقاء الذي يستمده الجميع من المكان (مكة المكرمة)، بالإضافة إلى الأحمر والأسود ولون الذهب الذي يمثل اللون الأصفر

(١) وأشير هنا إلى أن المملكة العربية السعودية بليت بالدعاية السيئة في بدء قيامها، حيث يتهمها الكتاب بالاعتداء على الناس ومعاقبة حليق اللحية، ونجد صدى هذا الخبر المزيف أو المبالغ فيه في خبر هذه الرحلة عند الكاتب، يقول عن سبب تأخير الرحلة مدة عشرة أيام: "**وحدد موعد المسير، وكان بعد عشرة أيام. هل تدرون لماذا أجلوه عشرة أيام؟ كان ذلك لسبب لا يخطر لكم على بال. وهو أن تطول لحاهم ليذهبوا إلى مكة بلحى معفاة لا بذقون محلوقة؛ لأنهم سمعوا أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمسك من كان حليق الوجه، لهذا أعفوها**". ذكريات، ٣/ ٥٨-٥٩. ووصف المشاهدات هنا يكذب ما سمعه الكاتب وأهل بلده وقتها وربما قصد الكاتب إلى ذلك قصدا عند وصفه للحى الحاضرين ونسقها العام لكل أفراد الجنس.

وهي أجناس الناس كما هو معروف، وكأن الكاتب يعيد إنتاج الحديث النبوي الشريف بألوانه الواردة وفي ذات المكان تقريباً (مكة المكرمة)؛ ليكون الواقع الراهن مصدّقا لمعيار الدين الإسلامي، يقول النبي ﷺ: " **أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**"(١). وفي تأكيد آخر، فإن الاحتشاد المؤلف من كل الأجناس الحاضرة في الحرم المكي جاءت لتشهد إقامة حد من حدود الله (القصاص وحد الحرابة) على جانيين أحدهما من أبناء البلد من العرب الذين نفى عنهم حديث النبي الفضل إلا بالتقوى.

وفي لفتة أخرى يختم الكاتب المشهد مؤكدا على المغزى من وصفه ورصده للحدث، إنها اللحمة المتميزة على الرغم من الاختلاف وهو ما ميز البلد الحرام في هذا العهد الجيد عهد المملكة العربية السعودية: "**وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب، وخاضوا البحار ليواجهوها، ويتعلقوا بأستارها، وأكرم بها من جامعة**"(٢). فالاختلاف هنا نسق يؤكده الخطاب بألفاظ متعددة

(١) الحديث بتمامه في مسند الإمام أحمد برقم ٢٣٤٨٩، ينظر: مسند الإمام أحمد، ٣٨/ ٤٧٤. وهو حديث صحيح.

(٢) من نفحات الحرم، ص ٦٥.

(أخلاط من كل جنس ولغة وزي ... ومن ...ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى... وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم)[1].

والنسق الظاهر هنا يخفي نسقا آخر مضمرا، إنه نسق تمسك الناس بمعهودهم دون مواربة أو اختفاء، إذ وجدوا القبول والانصهار العام فلم يخشوا على أنفسهم إن ظهروا بمظهرهم في بلادهم أن يضايقهم أحد أو يستغلهم مستغل، فالمضمر هنا شكل العدالة الاجتماعية والتجارية والتعامل الواحد مع جميع الأطياف وهو ما يميز مكة المكرمة وإن لم يبد في أول وهلة إلا أن النسق يبدو عند التأمل وسؤال ما الذي يكسبه المتمسك بعاداته وما الذي يخسره، إنه في مكة لا يخسر شيئا كما يظهر من هذا الخطاب.

ولا يفوت الكاتب أن يرصد شكلا مميزا من أشكال عادات الذات التي وجدها جديرة بالرصد والوصف وربما الثناء والإعجاب، إنها عادات الكرم التي تتخذ عدة أشكال، فمن ضيافة القهوة وما فيها تفاصيل خاصة إلى شكل تقديم الشاي، إلى الضيافة العامة والخاصة على الطعام وما يبذل في ذلك من أشكال الكرم العربي الأصيل، وغير ذلك.

حينما حل الكاتب وصحبه على أمير تبوك من أسرة (السديري) قدم لهم أصناف الكرم السعودي المعروف، وبعد يوم حافل بالتجوال دخلوا مقر الأمير، يصف الكاتب المشهد المميز فيقول: "**وكنت لحظت (وأنا داخل)**

---

(١) في مقالة أخرى يقول الكاتب: "**والناس قلما ينظرون في مكة إلى زي أحد؛ لأنها ملتقى الأمم، ومعرض الأزياء، ومجمع الشعوب**". من نفحات الحرم، ص ٤٥.

الرجال أي الخويان (جمع خوي) واقفين في رحبة الدار، وعلى السلم، وأمام الغرفة وعلى بابها.

فما قال الأمير: (قهوة) حتى صاح الذي على الباب (قهوة)، فقال الذي في الدرج (قهوة)، وكرر الذي يليه قهوة حتى وصل الصوت إلى صانع القهوة ولست أدري أين كان.

سمعنا خمسا وخمسين قهوة، قهوة، هوه، هوه، وه، وه... تخرج متعاقبة متلاحقة، كأنها طلقات مدفع رشاش، خرجت كلها في ثلاث وأربعين ثانية فارتعبنا... والأمير يضحك قد راقته الدعابة، ونظر إلي كالمتسائل، فقلت: ما هذا؟ لقد حسبته غزو.

قال: لا، قد أمن الله هذه البلاد بعبدالعزيز، فلم يبق فيها غزو ولا ما يشبه الغزو، ولكنها طريقتنا في طلب القهوة، نريد أن يسمع جيراننا ومن هم حولنا، ليحضروا إلينا..."[1].

يتشكل الخطاب السابق من حالة قصصية جرت للكاتب، يقف فيها الكاتب بوصفه مجموعة تحل في ضيافة الأمير، الذي يبرز بمفرده في الحوار، والأمر، وردة الفعل. وتتمثل تيمة القصة في المفارقة التي حدثت وأرعبت الضيوف ظنا منهم أنها الحرب، حتى يتطوع الأمير بكشف اللغز/ العادة، وينتج خطابا إشهاريا محدودا عن العادات، والحالة السياسية العامة في البلاد، ليتم في هذا الخطاب كشف عادة اجتماعية، وتقليد عام، والإبلاغ عن خبر

(١) ذكريات، ٣/٩٦-٩٧.

مستقر في الذهن ينبغي إذاعته للآخر ليطمئن وهو خبر توحيد المملكة والأمان الذي حل بعد ملك الملك عبدالعزيز رحمه الله.

وفي الخطاب اللغوي عدد من كاشفات النسق تتمثل في وقفة الخويان (صحبة الأمير وأعوانه) في سلسلة مترابطة يعرف أولها ولا تعرف نهايتها والتي يُظن أنها تصل إلى حيث موقد الضيافة وتجهيز القهوة، والترتيب هنا له أهميته بالتأكيد لإيصال الرسالة إلى معد القهوة من جهة، وإذاعة خبر الضيافة للمحيط الاجتماعي الذي يتغياه الأمير/ النسق.

وأمر آخر ينبغي الانتباه له في نسق السلسلة المترابطة هذا، وهو ارتفاعها على السلم، وكأن خبر القهوة، وسندها المتصل سند عالٍ كما يقال(١)، مرتفع، يتخذ شكلا إذاعيا في مقام مرتفع ليبلغ الصوت ما لا يبلغه البصر ولا تحجزه المباني ويرتحل إلى جميع الاتجاهات في هذه المدينة الفتية.

والمشهد الذي يصفه الكاتب يتوافر على ملمح دقيق لا أستبعد نسقيته وهو مشهد الحفاوة بالضيافة، تبرزه لهفة الخويان ومسارعتهم بالانطلاق في نقل الكلمة بسرعة عجيبة، تتكفل فيها الثانية الواحدة بكلمة وجزء من الكلمة نفسها على لسان ناقل آخر كما أراد الكاتب أن يصف حين لجأ إلى ترقيم الكلمات ومقدارها زمانا بالثواني!

أخيرا فقد صرح الأمير بنسقية الضيافة واحتشاد الذات لها حماية لهذا

(١) السند العالي في الحديث الشريف هو وصف لإحدى طرق الحديث النبوي الشريف الذي يقل رواته عن بقية الطرق، وهنا المقصود بالسند العالي تسلسل نقل المعلومة إلى العلو المكاني ليحصل المقصود وهو إذاعة الخبر والدعوة بشكل غير مباشر.

التقليد العربي، وحرصا على الألفة والترابط والاجتماع العام الذي تلتحم فيه المدينة مع أميرها لتكون رابطة متلاحمة، وتكون أداة من أدوات الأمان الذي شمل الجزيرة بفضل الله ثم بملك الملك عبدالعزيز ﷺ وتوحيده البلاد تحت راية واحدة(١).

وهذه الأنساق الظاهرة تحمل في طياتها نسقا مضمرا يعد من الأنساق الاجتماعية التي لا تزال حاضرة إلى اليوم، ذلك النسق المتمثل في حضور مهمة استحدثت بعد توحيد البلاد وهي مهمة (الخوي) عند الأمير، فهذا النسق الاجتماعي متغلغل في النسيج السعودي ويعرف حتى اليوم بهذا الاسم (خوي الأمير)، وعادة ما تعد هذه الصلة بالأمير وجاهة اجتماعية ونافذة من نوافذ الحصول على بعض الامتيازات. المهم أن هذا النسق حضر في رحلة الكاتب وكان له دوره الذي لم يكن ظاهرا إلى حد كبير في الرحلة، ولكنه على كل حال نسق مضمر يحمل نظاما غير مكتوب وله وظائف تعرف اجتماعيا في كثير من المجتمعات السعودية.

ومن تتبع النسق عند الكاتب سبره أغوار تلك العادة وما يندرج تحتها

---

(١) انطلق الكاتب في خطاب يصف نسقية القهوة وتقاليدها عند أهل الجزيرة العربية وما ينبغي فيها وما لا ينبغي، مبرزا قيمة القهوة وعمق تشكيلها للنسيج السعودي حتى كأنها معادل موضوعي للتنظيم العام، والعلاقات الاجتماعية، والعمق التاريخي، وأخيرا نافذة التواصل مع الآخر وفتح أفق الحوار بالمباسطة والحديث المصاحب للقهوة. ينظر السابق ص ٩٧-٩٨. وقبل القهوة أشار الكاتب إلى استقبال الأمير للوفد عند عتبة الباب، وأفاض عليهم من البشر والإيناس الشيء الكثير مما كان محل تقدير وشكر من الكاتب والوفد كاملاً. ينظر: السابق، ٧٩/٣. وينظر وصف هذا المشهد في كتاب: من نفحات الحرم، ص ١٠٥-١٠٦، وفيه اختلاف يسير.

تفاصيل تؤكد نسقية الفعل، واحتشاد الذات له، وتغلغل الفكرة في الذات حتى تكتسب كل قطعة منها اسمها الخاص ووظيفتها الدقيقة في تشكيل الصورة الكبرى (صورة القهوة): **"للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب ينال من أجلها، ولها عندهم قواعد وقوانين لا معدل عنها ولا ترخص فيها... وأنهم يتخذون لها أواني كثيرة يصبون القهوة من إناء إلى آخر ليصفوها ويرققوها، ويسمون كل (دلة) من هذه الدلال باسم، فهذه العروسة، وهذه الأم، ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشرة أوان (دلال) كلها مملوءة، والساقي يحبها حبا شديداً، ويراها في معدلة أولاده"**[(١)].

إن هذه العلاقة مع أواني القهوة من النسقية بمكان حتى أصبحت معادلا موضوعيا[(٢)] للأسرة بتشكيلاتها المختلفة، ولنتأمل تعبيرات الكاتب منذ البدء: **قواعد وقوانين، لا معدل عنها ولا ترخص فيها، يحبها حبا شديدا**. وصفة تلك الأواني بأنها: **العروسة، الأم، الأولاد**. إن علاقة هنا تقوم بين العربي/ الذات وهذه العادة الاجتماعية تجعلها في مقام الأسرة التي تقوم على **القواعد**

---

(١) من نفحات الحرم، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) المعادل الموضوعي (Objective correlative) مصطلح عرف عند الشاعر والناقد توماس إليوت، ويعني بشكل عام إقامة أشياء في العمل الفني تقوم مقام المشاعر أو الأفكار، فهو بمثابة رمز كبير مؤلف من الفكرة المقصودة التي لم يعبر عنها صراحة، والفكرة أو الصورة أو القصة التي تمثل في النص بوصفها ذريعة ومكافئا للموضوع المقصود. ينظر: المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، د. فوزية علي زوباري، ص ٤٧٩.

والقوانين المنظمة للعلاقة وتسودها عاطفة **الحب الشديد**، وتكتسب فيها الأسرة صبغتها الواضحة فتأتي **العروسة**، ثم تصبح **أمًا** وحولها **الأولاد** وكلهم حول رب الأسرة: **الساقي**/ المحب، وهكذا أنجز الكاتب خطابا واصفا يكشف النسق ويصوره أدق تصوير مستثمرا أقوى أشكال العلاقة الاجتماعية (الأسرة) منذ نشأتها حتى إثمارها، ليتشكل من ذلك حياة أو ما يشبه الحياة على أسطر هذه الرحلة وفي نقلها للآخر الغافل عن الإنسان السعودي في ذلك الحين.

وقد وصف الكاتب ضيافة الأمير في تبوك، وهي الضيافة المعهودة المتمثلة في ذبيحة الضأن على قصعة من الأرز يتحلق حولها الجميع ويأكلون بأيديهم، والكاتب قد أنجز في هذا خطابا ساخرا ليس هذا مقامه(١).

وعند الانتهاء من الطعام وصف الرحالة فعل الخدم مع الضيوف بصب الماء من الأباريق على الأيدي ويتساقط ماء الغسل على طست وهي طريقة يعرفها الكاتب في الشام وليست غريبة عنه. ولكنها طريقة أشار الكاتب إلى أنها مخالفة للنسق وتتميز بأنها طريقة الأمير التي لا يماثلها فعل العامة أو أهل البادية وكأنه يشير إلى أن الأمر يلحقه بعض الاختلاف في ختام الضيافة تبعا لاختلاف المستوى الثقافي والمركز الاجتماعي للمضيف والضيفان(٢).

---

(١) ينظر: نفسه، ص ٩٢-٩٣.

(٢) ينظر: نفسه، ص ٩٤. ومن الضيافة المميزة ما وجده الكاتب من لطف الأمير في إعداد حمام متكامل كمل تلك الحمامات الشامية للاغتسال، وهو ما وجده الكاتب وصحبه أمرا لا تعدله

ختاما أشير هنا إلى مقطع قصير قدمه الكاتب في بداية حديثه عن الرحلة، يشير فيه إلى نسق اجتماعي شهير، أدركه الكاتب منذ زمن طويل وهو في بلده وقبل أن يسافر إلى المملكة، يقول: "**فلما جاءني الشيخ ياسين يقول، وهو مستبشر فرح: (هيا استعد فقد تقرر السفر)، سقط في يدي، ولم أدر ماذا أفعل؟ وقعت بين مشكلتين، إخلاف الوعد أو ضياع الوظيفة، ثم وجدت أن ضياع الوظيفة أسهل من الإخلاف، ومع من؟ مع نجدي سلفي لا يعرف من كلمة (نعم) إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت، فقلت له حاضر**"(١).

فالكاتب هنا يصرح بأهم الصفات التي يعرفها عن الرجل النجدي السلفي، وهي صفة الوفاء بالوعد وعده أمرا محتوما لا ينقض بأي حال، وخوف الكاتب من انطباع المعتمد الشيخ ياسين الرواف لو اعتذر عن مرافقة الوفد بعد الوعد. والخطاب هنا لا يُبنى على الوصف الخاص بل النسق العام الذي يفهم من تحويل اسم الشخص الخاص والمعروف إلى وصف عام يشمل أبناء جنسه في المملكة العربية السعودية (نجدي، سلفي)، وهي أوصاف يدخل فيها كل من كان في نجد تقريبا من الرجال، وهذا المأزق الذي وقع فيه الكاتب جعله يختار الصعب ويستسهل فقدان الوظيفة حفاظا على العلاقة

قيمة في تلك الظروف الصعبة والارتحال الطويل الذي قاموا به واحتاجوا من بعد لما يزيل عنهم وعثاء السفر ويجدد نظافتهم ونشاطهم. ينظر: من نفحات الحرم، ص ١٠٤.

(١) ذكريات، ٣/٥٨.

بالمعتمد وصيانة لشخصيته ورجولته التي لا يريد أن تهتز في نظر هذا النجدي السلفي، الصديق.

لقد أبرز هذا الرصد الانتقائي من الرحالة للعادات الاجتماعية[1] أن المجتمع السعودي قد استمر في تعميق الأنساق العربية الأصيلة المتمثلة في الضيافة والدين والروابط الاجتماعية، وكان لتوحيد المملكة الأثر الأبرز في ترسيخ هذه الأنساق ببسط الأمن والأمان والترحيب بالوافد الغريب ومحاولة إدخاله في النسيج الاجتماعي وتقبل اختلافه العام ضمن دائرة الدين الإسلامي، كما أن هذا الاستقرار السياسي قد أسهم في تعميق القيم الدينية وأتاح للناس ممارسة الشعائر الدينية دون خوف أو قلق على مكتسبات النفس والمال والعرض، فتم بذلك الالتحام بين النسق العميق والوضع العام الجديد بما يرسخ الأول ويعظم شعور الامتنان للثاني من الذات والآخر على حد سواء.

(١) الانتقاء هنا لا يعني الاختزال حتما، بل لأن الكاتب يمضي لهدف اكتشاف الطريق، وإمكان الارتحال بالسيارات لزيارة المشاعر المقدسة، ولم تكن زيارته اجتماعية في أساسها فاكتفى في السياق الاجتماعي ووصف الأنساق بما أحاط بالعنق كما يقال في المثل.

المبحث الثالث: الأنساق الثقافية:

أفردت الحديث للنسق الثقافي على الرغم من كونه جزءا من النسق الاجتماعي لأسباب متعددة، منها أهمية النسق الثقافي من حيث هو واجهة من واجهات المجتمع، بالإضافة إلى الأهمية المرحلية للرحلة وأهمية الرصد الذي قدمه الكاتب لهذا النسق في مختلف تفاصيله وإن كانت يسيرة أو مبعثرة، وثالثا لأن الثقافة أساس يبنى عليه تطور المجتمع اللاحق والذي أشار إليه الكاتب في أكثر من سياق.

والفصل بين النسقين أمر يصعب إجرائيا لتداخلهما كما ذكرت، إلا أنني اجتهدت في وضع حد فاصل قد لا يتفق معي فيه الكثيرون، وهو أن النسق الاجتماعي في حد ذاته حين يوصف يحمل في عمقه جوانب الإلف وتعليم الأجيال وتمريره إليهم، فيغدو الفعل الاجتماعي ثقافيا إن تعاهده النسق وحفظه وعمل على نقله عبر الأجيال.

والأنساق الثقافية في الرحلة متعددة وإن كانت قصيرة المقدار، منحصرة غالبا في وجهة الكاتب والوفد بشكل عام، لكنها تعد صورة مميزة عن ذلك العصر، وتصل في بعضها بين الشخصيات التي عرفها المشهد الثقافي في المملكة مع الوفد السوري الذي أنجز الرحلة/ الفعل، والكاتب الغريب الذي حاور وجالس وصادق هذه الشخصيات وعرفها عن كثب ورأى بعض ممارستها الثقافية.

من أوائل الملامح الثقافية التي استوقفت الكاتب ولم ينسها ورواها بإكبار فيما بعد ذلك الموقف الذي كان من وكيل أمير القريات مما يدل على أن

الحضارة وبعض أسبابها كان خيارا للسعوديين لم يشأ بعضهم أن يتماهى معه ووقف أمامه موقفا صارما صيانة للعادة والقوة التي عرفوا بها، يقول: "**ولست أنسى كلمة قالها هذا الشاب، وكيل أمير القريات، الذي لم يتعلم في مدرسة، ولم يحمل شهادة. قدمنا إليه من الحلوى الشامية التي حملنا منها معنا، والتي ملأت شهرتها البلاد، وعجزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة، فاستطابها وقال لنا: إنه ما ذاق من قبل مثلها ولكنه (وهذه هي الكلمة) قال: ولكنه كان يفضل ألا يذوقها، لئلا يعوده مذاقها الترف، ويسلبه روح الصحراء**"(١).

إن الترف خيار من الخيارات المتاحة، عرفه وكيل الأمير وعرف أثره فلم يشأ أن ينساق وراءه بأكل مثل هذه الحلوى، وفضل أن يظل في نسقه الذي اعتاد عليه وهو نسق الصحراء، الحلوى فيها هي التمر، لا تلك الحلوى التي يحتشد لها الناس وتعجز عن صنع مثلها أيدي الطهاة، وهذا الحوار من وكيل الأمير يصف النسق الذي كان يعتد به الوكيل ويحميه في ذاته، بل إنه لم يكن يخجل من النسق بل أفصح عنه أمام هذا الجمع الزائر، المعتد بما لديه من حلوى، وكأنه يقول نعرف الترف ونقدر عليه في هذه الدولة المباركة لكن الأولى بنا هو المحافظة على روح الصحراء التي تعلمنا الصبر والظفر في الختام، ونعتاد بروحها على القسوة التي تتطلبها المرحلة المبكرة من بناء الدولة بما في هذه المرحلة من صعوبات وقلة مادية وتباعد مكاني.

---

(١) ذكريات، ٣/٨٤.

لقد قدم الوكيل للوفد درسا، لم ينسه الكاتب وأحب أن ينقله للمتلقين من أبناء جيل وكيل الأمير الشاب حينها وأحفاده، إنها أخلاق الآباء واختياراتهم التي جعلت واقع الحياة أجمل، وبناء المملكة أقوى والأصلب، ومن ثم فإن النسق القديم أمر يحتم علينا الرجوع إليه باعتداد والكتابة عنه بشغف وشرف وحب.

ويغدو النسق ثقافيا حين نعلم أن هذا الأمير انتقل عبر الإمارات يحمل هذه الفلسفة ويمررها لجلسائه ضيوفا أو صحبا، وهي ثقافة حمل الأمير على عاتقه توضيحها والترغيب بها من خلال الخطاب القصير والإجابة الموحية، وما استعمال الروح وهي محرك الجسد وحافظ حياته إلا دليل على أن النسق أمر يتعاهده الأمير/ الذات، كما أن الأمير يعرف أثر العادة وتحولها إلى ثقافة تحيل الجوهر وتغيره، لذا فإن موجبات التحول مرفوضة عند الأمير الشاب الذي تتوافر فيه مرغبات الترف (الإمارة والشباب).

وفي مكان آخر يقدم الدليل السعودي الذي تطوع لمرافقة الوفد إلى تبوك نصيحة قيمة ينبغي المحافظة عليها، وهي نصيحة للآخر تعتمدها الذات وترى أهميتها وبدهيتها، ألا وهي تنصيب أمير للمجموعة لحسم الخلاف وإنجاز الأمور، يقول: "**كانت الحماقة وحدها هي التي حملتنا على ترك ضيافة الأمير، ذلك أننا لم نسر إلا ساعة، حتى أظلم الليل، وتوعرت الأرض، وتعذر المسير، فقال لنا الدليل، قفوا، فوقفنا، فعرض علينا العودة إلى القريات لأن المسير صعب والمبيت هنا أصعب، فأبينا... قال: ارجعوا فلا محط لكم هنا.**

فأبينا الرجوع، فتفرقنا وذهبنا يمينا وشمالا، نفتش عن أرض خير منها نبيت فيها، قال أين تذهبون؟ كل المنطقة مثل هذه البقعة... من أميركم؟ قنا: كلنا أمير.

فأنشد أبياتا من الشعر النبطي ضحك منها الشيخ الرواف، لأن فيها –كما بدا– السخرية منا والهزء بنا"(١).

فالدليل هنا يسأل عن النسق الذي يعهده في كل مجموعة تخرج لشأن أو سفر، كيف لا يكون فيها قيادة تحسم الأمر وتقطع الخلاف وتبت في المشكلات وتحكم فيها، وحين وجد النسق متعذرا عند الآخر هزئ بهم وتمثل بيتا شعريا لم يفهموه وربما قصد الدليل أن لا يفهمهم البيت.

ونسقية الحادثة ثقافيا تأتي من أمرين، الأمر الأول في تأمير الأمير على المجموعة وهو توجيه نبوي معروف ألا يترافق ثلاثة فأكثر في سفر إلا أمروا أحدهم، لأن التفرق شر وشقاق، واجتماع الكلمة أمر مهم ومطلوب، وهذا النسق عند الذات ينسجم مع اجتماع الكلمة في المملكة العربية السعودية على ملك واحد ودولة واحدة قبيل سنوات من هذه الرحلة ولله الحمد، وهو ما يغتبط به كل سعودي وأولهم الدليل الذي بدأ في قطف ثمار اجتماع الكلمة وتوحد الوجهة نحو البناء والتطور، أما الوفد فقد كان صورة عن بلاده في تلك الفترة التي من سماتها التفرق وكثرة الانقلابات في الوزارة ووجود الاستعمار الذي يذكي الخلافات ويريد أن تبقى شؤون السوريين في تفرق

(١) السابق، ٣/٨٥.

وتشتت. المهم أن النسق هنا نسق ثقافي بارز يتمثل في ضرورة القيادة وأهميتها لأنها تبرز الحكمة وتعمل بها وتستمع للنصيحة وتتأمل فيها.

والنسق الثقافي الآخر في هذه الحادثة يتمثل في هذه النشأة العربية الأصيلة التي يمثلها الدليل، في الوقوف على الحالة واختيار البيت الشعري المناسب الذي يصف المقام وربما يهزأ به، وهذا النسق العربي قديم جدا روي عن عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان يتمثل ببيت شعر كلما عن له أمر أو رأى حادثة أو موقفا(١).

وفي مكة يقف الكاتب ليرصد بعض الملامح الثقافية التي تتسم بالشمول من جهة، والعمق الثقافي من جهة أخرى، بما يدل على وجود حركة ثقافية نسقية تعم أرجاء مكة، ويؤسس أنساقها أبناء مكة استثمارا للطارئ الغريب وتقبلاً له ولاختلافه، وقد يحصل في أثناء ذلك بعض المثاقفة المنشودة(٢).

ففي مكة رأى الكاتب المكتبات حول الحرم، وهي حسب وصفه مكتبات كثيرة قرب باب السلام، وقد أتاحت له هذه المكتبات أن يجتمع بنخبة من العلماء والأدباء من أهل مكة، وبنى معهم صداقة ممتدة وأهداهم

---

(١) روى ابن سلام الجمحي عن ابن جعدبة أنه قال: "**ما أبرم عمر بن الخطاب أمراً قط إلا تمثل فيه ببيت شعر**". بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ابن عبدالبر، ١/٣٧.

(٢) (المثاقفة) تعني بشكل عام: "تبادل الآراء، وتلاقي الأفكار بعضها مع بعض، إن على مستوى الاتفاق والتسليم بين طرفي المثاقفة، أو على مستوى الاختلاف والتنازع بينهما". بلاغة العقل العربي: تجليات المثاقفة في التراث النقدي، د. محمد الدكان، ص ٣٧.

وأهدوه، وطال بهم الود حتى بعد عودة الكاتب إلى مكة في رحلات متفرقة[١].

وكثرة المكتبات وقربها من مكة أمر كان قائما إلى وقت قريب، على أطراف المسعى قبل التوسعة السعودية، ثم فيما يعرف بسوق الليل من الجهة الشمالية للحرم، وهذه ممارسة ثقافية لها أثرها في بناء أجيال ثقافية مطلعة تربط بين طهر البقة المباركة ووفرة المعروض الثقافي من الكتب، وإغراء التثاقف مع الآخر الوارد إلى مكة ومقتني الكتاب أو زائر المكتبات للاطلاع.

والتثاقف الذي أشار إليه الكاتب كان مع شخصيات بارزة في التاريخ السعودي القريب هما (الشاعر والأديب محمد حسن عواد، والأديبان عبدالله المزروع وهشام الزواوي). أما العواد فقد التقاه الكاتب وحاوره ونشأت بينهما صداقة ممتدة حتى وفاة العواد رحمه الله، وأهدى العواد باكورة كتبه للكاتب كما أهدى الكاتب بواكير كتبه للعواد إتماما للتثاقف الذي نشأ بالحوار واللقاء والمجالسة. وهذه الكتب المهداة هي: خواطر مصرحة للعواد، بشار بن برد، أبو بكر الصديق، التحليل الأدبي للطنطاوي[٢].

وفي ملمح ثقافي آخر فإن الكاتب قد وقف على مدونة مهمة تقوم بتسجيل حوادث مكة وزوارها بشكل محايث وآني، وهو الدفتر الذي كان يقيد فيه الأديب المؤرخ عبدالله المزروع كل ما يجري في مكة ومن يفد إليها من النابهين والمشهورين والوفود الطريفة (مثل وفد الكاتب ورحلتهم الشاقة)،

---

(١) ينظر: ذكريات، ١٣٤/٣.

(٢) ينظر: نفسه.

ودعا الكاتب إلى البحث عن الكتاب وطباعته لما فيه من طرائف تاريخ مكة وأخبارها التي يخشى عليها من الضياع.

إن هذه الإلماحة الثقافية من الكاتب لتدل على نسق ثقافي متأصل في المجتمع المكي قوامه الحرص على الكتاب، ووجود مجتمع مثقف يحف به ويجتمع حول مواطنه ويسعد بالتقاء المثقفين من المسلمين بهدف التواصل الثقافي والمعرفي وتبادل الخبرات والمعرفة مع إخوتهم من المسلمين، كما أن هذه المكتبات تقدم خدمة للمجاورين وطلاب العلم الشرعي من مختلف البلدان فرصة الحصول على الكتاب وبيعه أيضا متى ما دعت إلى ذلك الحاجة، كما أن هذا المجتمع الثقافي واجهة ثقافية مشرفة للمجتمع السعودي، يغير نمط الصورة التي قد تظن عن مجتمع بدوي قليل الثقافة أو الحرص على التدوين والكتابة، وكتاب العواد مثلا حين يهديه مؤلفه لرجل شامي لا يهديه لرجل فرد، بل لمجتمع شامي كامل سيعرف العواد من خلال أحاديث الطنطاوي ومروياته عن مكة وأهلها وربما أدب مكة. كما أن الطنطاوي/ الكاتب وهو الذي كان مغرما بكتاب أخبار دمشق رأى في مدونة المزروعي كتابا طريفا ربما يعيد للذهن تلك المدونة المهمة في التأريخ لدمشق ومثلها مدونة تأريخ بغداد، تلك المدونات التأريخية التي بقيت شاهدا على عصور خلت بكل ما فيها من انتصار أو انتكاس أو ملامح ثقافية واجتماعية وغير ذلك، كما أنها قدمت مادة ثرية لكتاب التراجم والسير لأنها تورد أسماء الرجال وعلاقاتهم وأعمالهم وحرفهم وغير ذلك.

ومن النسق الثقافي الذي وجده الكاتب ذلك النسق المتعلق بطبيعة البناء وشكل المنازل، إذ تعد العمارة من الظواهر الحضارية لأي بلد أو أمة، وفي مكة وجد الكاتب البيوت على هذه الصفة فقال: " **ثم بدت لنا مكة من فم الوادي ، بيوتها مرتفعة ضيقة كناطحات السحاب ... فيها بيوت عالية رفيعة منها ما هو بست طبقات أو بسبع تمتاز برواشنها . و (الروشن) شباك عريض من الخشب المزخرف المزوق**" (١).

لقد لفت انتباه الكاتب طبيعة البناء في مكة بما لم يعهده في الشام التي عرفت بدورها ذات الطابقين المطلة على صحن واسع وبركة في وسطها(٢)، أما في مكة فإن هذه العمارة مما لم يره الكاتب من قبل، طوابق متعددة في بناء ضيق، ونمط من الشبابيك له صفة خاصة واسم خاص ويعد من خصوصيات الحجاز الذي يحمي المنزل ويتيح لأهله التهوية الجيدة والحماية من الطيور من جهة، ويوفر لأهله الستر فلا يُرى أهل البيت من الخارج حتى وإن فتحت الشبابيك للتهوية، والرواشن موجودة إلى اليوم بوصفها هوية عمرانية تُحفظ في الحجاز وخاصة في مكة حتى مع المباني الحديثة حول الحرم(٣).

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٤٥.

(٢) ينظر: دمشق: البناء العمراني في العصر العثماني، محمود زين العابدين، ص ٩٧-٩٨.

(٣) أشير هنا إلى ما يعرف بمشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير التي أقامت مشروعها عام ١٤٠٩هـ، ثم مشروع جبل عمر بدءا من عام ١٤٢٩هـ، وحافظ المشروعان على منظر الروشن المكي كما هو بأناقته وبروزه الانسيابي المرئي في الأبراج الشاهقة. ينظر:

ومن أبرز ما يلحظ في الخطاب السابق التزام الكاتب بالنقل الثقافي للهوية العمرانية المكية وما تختص به إبان المرحلة التاريخية المتقدمة تلك، فنقل باختصار الهيئة (ضيقة، مرتفعة، طوابق ست أو سبع)، والخصوصية (الشبابيك المختلفة)، والجانب الجمالي المتمثل في مادة الروشن ومنظره المزخرف المزوق، وكأن الكاتب مستعجل للوصول إلى البيت الحرام فالتزم بالأمانة في الوصف واختصر الخطاب ليتهيأ للمنظر الأهم وهو منظر اللقاء بأول تباشير البيت الحرم وهي المآذن المرتفعة (نسبيا).

وفي بناء الشخصية المسؤولة خاصة، ومن يجالسها من أعيان المدينة عامة لمح الكاتب نسقا مميزا لم يعهده من قبل أو يقف عليه بمثل هذا التكرار والأثر الثقافي الواضح، ذلك أنه لما اجتمع هو ورفاقه بنائب أمير القريات، وحادثوه في بعض اليوم، وجدوا لديه رصيدا من العلم وأحاديث النبي ﷺ، وحين تتبع الكاتب ذلك وسببه قال:"**سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله. فجعل ليله كله للعلم. يأتي مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتابا، فإذا أتموه شرعوا في غيره. وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه. وقد قلّده**

ويمكن مشاهدة صور الروشن من خلال محرك البحث الشهير (google).

الأمراء جميعاً في ذلك، فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات"[1].

لقد أسس جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله هذا النسق الثقافي في مجالس الأمراء ومسؤولي الدولة، ومن ثم كان هناك حراك علمي يمتاز بالديمومة والوقت المفتوح في أمسيات الأيام، ويأتي الجالسون فيه على عدد من الكتب المهمة في الفقه والتفسير والحديث وغيرها، وهو ما جعل هذه الممارسة تؤسس لنسقين ثقافيين مهمين في المملكة، هما نسق الثقافة الأصيلة والتتلمذ على أمهات كتب التراث بما في ذلك من معرفة الأحكام الشرعية، وفهم القرآن الكريم، وغير ذلك.

وفي هذه الممارسة النسقية الخاصة فائدة ثقافية أخرى تتمثل في إشاعة جو من الحوار الثقافي والقدرة على عرض الأفكار ونقدها والإقناع بالحجة وغير ذلك مما يعرف عن هذه الممارسة، بدليل نص الكاتب على المناقشات العلمية التي تجري، وكذلك لما وجده الكاتب من ثقافة لدى نائب الأمير، وما لقيه من قدرة نائب الأمير على الحوار والاحتجاج والإقناع وعرض الأفكار وغير ذلك.

إن الكاتب هنا ليؤكد نسقية الفعل الثقافي الخاص بأنه نسق الملك، الذي شجع بقية الأمراء على التقليد والتأسي، وهي نسقية مؤكدة في الخطاب

(١) من نفحات الحرم، ص ٩١.

بدلالة السنة الحسنة، والسنة الطريق الذي يسير في الناس ويتعارفون عليه[1]. كما أنها نسقية ثرية بما لها من وقت زمني مفتوح **(ليله كله للعلم)** ولا يستبعد أن الكاتب أراد بهذا التعبير أن يؤكد طول الوقت الممنوح للعلم والنقاش الثقافي ومطالعة الكتب.

لقد وقف الكاتب، ومعه رفاق الرحلة، على بعض الأنساق الثقافية، وعبر عنها في هذه المدونة المتشظية، مؤكدا في أكثر من سياق أنه لم يتح له الإلمام بكل ما في البلاد السعودية من أنساق ثقافية لقصر الوقت، وتركيزهم على الهدف الأساس من الرحلة وهو ريادة طريق الحجاز بالسيارات، وزيارة البيت الحرام والمسجد النبوي، ومن شأن الراحل لهدف محدد أن لا يركز في التفاصيل الأخرى، وأن يصف بشكل عابر ويؤكد ثراء المكان بالتفاصيل التي غادرها القلم دون تدوين.

وفي ختام الحديث عن وضوح الأنساق الثلاثة في خطاب الكاتب ينبغي أن أشير إلى أن الكاتب لم يقل كل شيء بالتأكيد، ولكنه وقف على عدد من الأنساق المهمة وأشار إلى بعضها عرضا، بما يكمل الصورة العامة للحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في المملكة في هذه المدة المتقدمة وفي وقت مهم من أوقات تأسيس هذا الوطن، وهو ما دل على توازن البناء ورسوخه بالإضافة إلى وجود الصلة العميقة بالمحيط الثقافي والديني للمملكة، كما أن هذه الأنساق التي رآها الكاتب وصحبه تعد أنساقا تلقائية غير مصطنعة

(١) من معاني السنة الطريقة الصحيحة وما تعاهده الناس وعرفوه، وهي أيضا التهذيب والتحسين بالنظر لأصل المادة. ينظر: لسان العرب، مادة سنّ.

تكشف المستوى الثقافي والاقتصادي والعلمي للحاكم والمحكوم، ويمكن اللجوء إليها وإلى غيرها للوقوف على أسباب عمق التلاحم والوحدة، والعلاقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم في زمن عجت فيه البلاد المجاورة للمملكة بالاضطراب وانعدام الأمن أو تذبذب المواقف والأحوال.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي المكرمات، وعلى آله وصحبه أولي المآثر الواسعات، أما بعد:

فقد ارتحلت في هذا البحث في عمق التجربة الخاصة بالكاتب وأصحابه في هذا الوقت المتقدم من نشأة المملكة، ووقفت -مع القارئ- على عدد من الأنساق التي تناغمت في تشكيل صورة المجتمع وتعايش أهله مع بعضهم ثم مع المختلف العابر.

وقد خلصت إلى عدد من النتائج التي يغلب على الظن أنها نتائج متجذرة في المجتمع وليست حادثة لمجاملة ضيوف الملك ومكانتهم الاعتبارية في بلادهم، ولاسيما في الحوادث التي وقعت لهم دون أن يعرف الناس طبيعتهم وسبب وجودهم أو سفرهم، ومن هذه النتائج:

١- وضوح النسق السياسي في تلك الحقبة المتقدمة، بدءا من العناية بالحدود وترسيمها، والإعلان عن اسم الدولة الحديثة، مرورا بوجود مركز الحدود والإمارات المتعددة التي تعي الفارق بين التنظيم الإداري وواجبات الضيافة والترحيب.

٢- قدرة الملك عبدالعزيز على اختيار الشخصيات المناسبة التي تترك الانطباع الطيب لدى الآخر، مع القيام بشؤون الحكم وتأسيس المدن وفق رؤية واضحة ووعي سياسي.

٣- وضوح نسق التشريفات إن صحت التسمية في الممارسة السياسية في صغرى المحافظات وكبراها، وتتراوح هذه التشريفات بين الإسكان والولائم

والترحيب الدائم. وبدا هذا واضحا في ضيافة القريات وضيافة تبوك وضيافة العلا وغيرها.

٤- التغير الاجتماعي الظاهر في النسق والأعراف بدا واضحا في خطاب الكاتب ووعي المواطن السعودي، الذي يلتقيه الكاتب في القرى والمدن وطرق السفر، وقوام هذا التغير الوعي بالمختلف ومحاورته في القناعات وهضم كل ما يجده من اختلاف الآخر في مسألة المساجد مثلا أو غيرها من المسائل.

٥- بناء المؤسسات الاجتماعية وأثرها في تشكيل المجتمع السعودي بدا واضحا في النسق المنقول عبر الرحلة وإن اختلفت درجاته في الرحلة.

٦- شيوع الثقافة بشكل بارز في مختلف شرائح المجتمع، بدءا من رأس الهرم جلالة الملك عبدالعزيز وحتى أعيان الناس وأفرادهم، فمجالس العلم، وشيوع الثقافة والمكتبات أمر ملاحظ ولم يجد الكاتب عناء في تلمسه ورؤيته.

٧- من النسق الثقافي ما يبدو في السلوكيات والممارسات، كما بدا في ثقافة القهوة والترحيب المتكرر، إلى شكل الدعوة الضمنية إلى الضيافة الذي يقوم به الأمير وأعوانه ورجاله، انتهاء بالحرفية الدقيقة في إعداد القهوة وتقديمها وإخضاع الضيوف لطقوسها في القبول أو الاكتفاء.

٨- العناية بالأسلوب في رسم الأنساق، وهي عناية خفية تصور وتنقل وتمتع وربما استعمل الكاتب الأساليب البلاغية المختلفة من المجاز والصور إلى المبالغة والتحسين المعنوي، المهم أن الأسلوب جاء خادما للمعاني، راسما

للرحلة، مصورا للأنساق، حتى بدت الرحلة بحق شهادة أدبية على واقع تاريخي وأمس مجيد وتحول سريع نحو الحضارة بوعي وقيم.

٩- حضور النسق المضمر إلى حد ما في الرحلة، وهو حضور وإن بدا خافتا إلى أنه يحمل دلالات يمكن تحليلها تتعلق بالأنساق الثلاثة، وتبدو من خلالها بعض الأنظمة غير المعلنة التي يتعاهدها المجتمع والحاكم دون إعلان أو نظام مقرّ، ووظيفة هذه الأنساق الحفاظ على الماضي وبناء الحاضر، واستيعاب الوافد المختلف وإشعاره باللحمة الواحدة واستيعاب تجربته واختلافه دون شرط التحول إلى الذات/ العادات.

ويرى الباحث أن هذه اللبنة إن وُفِّقت فهي لا تعود أن تكون استهلالا يجب أن يتبعه بحوث رصينة ترصد شكل المملكة إبان التأسيس وقبله كما يراه الآخر الذي يفد كل عام للحج والعمرة أو التجارة أو غير ذلك.

كما أن البحث في الرحلة يجب ألا يقف عند الرحلات المفردة، بل يحسن تأمل الرحلات التي صنعت قبيل تأسيس المملكة وبعدها لتكون الدراسة مقارنة بما يحدد ما قبل وما بعد توحيد المملكة وأثر ذلك في الأنساق المختلفة، خاصة في باب الرحلات الاستكشافية التي قام بها الرحالة الغربيون مثل رحلة الإنجليزية (آن بلنت: الحج إلى نجد) ورحلة السويسري: (ملاحظات عن البدو والوهابيين) وغيرهما،

خاصة أنهما يؤرخان لحقبة ما قبل الدولة السعودية الثالثة بمدد متفاوتة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً الكتب:

١- الأنثروبولوجيا الألسنية، ألسندرو دورانتي، ترجمة فرانك درويش، المنظمة العربية للترجمة- بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

٢- بلاغة العقل العربي: تجليات المثاقفة في التراث النقدي، د. محمد بن سعد الدكان، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٤م.

٣- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبدالله المعروف بابن عبدالبر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

٤- تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله الصالح العثيمين، مكتبة العبيكان- الرياض، ط١٣، ١٤٢٦هـ.

٥- الحج إلى نجد، آن بلنت، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٦- حلم في نجد، علي الطنطاوي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام- الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ.

٧- دمشق: البناء العمراني في العصر العثماني، محمود زين العابدين، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة- أبوظبي، ط١، ١٤٣٦/ ٢٠١٥م.

٨- ذكريات، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة، ط٣، ١٤٢١هـ.

٩- الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- أغادير، د.ط، ٢٠١٢م.

١٠- الرحلة في الأدب العربي: التجنيس.. آليات الكتابة.. خطاب المتخيل، د. شعيب حليفي، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١١- عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبدالحق بلعابد، تقديم د. سعيد يقطين، منشورات الاختلاف و: الدار العربية للعلوم- الجزائر، ط١، ١٤٢٩هـ.
١٢- علي الطنطاوي كان يوم كنت: صناعة الفقه والأدب، د. أحمد علي أحمد آل مريع العسيري، مكتبة العبيكان- الرياض، ط٤، ٢٠١٧م
١٣- علي الطنطاوي وآراؤه في الأدب والنقد: رائد السمهوري، دار مدارك- الرياض، ط٢، ٢٠١٢م
١٤- قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٤م
١٥- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر — بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٦- اللسانيات الأنثروبولوجية: منظور معرفي لدراسة بنية الثقافة العراقية، جواد كاظم التميمي، كنوز المعرفة- عمّان، ط١، ٢٠١٩م.
١٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
١٨- المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، د. فوزية علي زوباري، مجلة مجمع اللغة العربي بدمشق، المجلد ٨٧، ج٢، جمادى الأولى ١٤٣٣هـ.
١٩- ملاحظات عن البدو والوهابيين جرى جمعها خلال التجوال في الشرق، جون لويس بوركهارت، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
٢٠- من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، دار الفكر- دمشق، د.ط، ١٤٠٠هـ.
٢١- النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.

ثانيا: الرسائل العلمية:

٢٢- التشبيه في ذكريات علي الطنطاوي: دراسة بلاغية نقدية، إبراهيم بن عبدالله المجلي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ١٤٣٥هـ.

٢٣- القصة في أدب الشيخ علي الطنطاوي: دراسة نقدية، وائل بن يوسف العريني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ١٤٣٢هـ.

ثالثاً: المواقع الشبكية:

٢٤- موقع رؤية المملكة ٢٠٣٠م: https://cutt.us/3lekI .

٢٥- موقع شركة مكة للإنشاء والتعمير: https://cutt.us/8m2bD .

٢٦- موقع هيئة الخبراء بمجلس الوزراء: https://cutt.us/1cG45 .

First the books:

1. Linguistic Anthropology, Alessandro Durante, translated by Frank Darwish, The Arab Organization for Translation - Beirut, 1, 2013 AD.
2. The eloquence of the Arab mind: manifestations of culture in the critical heritage, d. Mohammed bin Saad Al-Dukan, The Arab Cultural Center - Casablanca, 1st Edition, 2014.
3. The joy of the councils, the forgetfulness of the councils, the sharpening of the mind and the obsession, Abu Omar Youssef bin Abdullah, known as Ibn Abd al-Bar, investigation: Muhammad Morsi al-Khouli, Dar al-Kutub al-Ilmiyya - Beirut, 2nd edition, 1981 AD.
4. History of the Kingdom of Saudi Arabia, d. Abdullah Al-Salih Al-Othaimeen, Al-Obaikan Library - Riyadh, 13th edition, 1426 AH.
5. Pilgrimage to Najd, Anne Blunt, translated by Sabri Muhammad Hassan, The National Center for Translation - Cairo, 1, 2007 AD.
6. A dream in Najd, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Asala for Culture, Publishing and Media - Riyadh, 1, 1402 AH.
7. Damascus: Urban Construction in the Ottoman Era, Mahmoud Zain Al Abidin, Abu Dhabi Tourism and Culture Authority - Abu Dhabi, 1, 1436/2015 AD.
8. - ٨memories, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Manara for Publishing and Distribution - Jeddah, 3rd edition, 1421 AH.
9. The Moroccan Susi journeys between knowledge and literature, Muhammad Al-Hatami, Research Laboratory in Heritage, Media and Terminology, Faculty of Letters and Human Sciences - Agadir, d.T, 2012.
10. The Journey in Arabic Literature: Naturalization... Mechanisms of Writing... The Discourse of the Imaginary, Dr. Shoaib Halifi, Vision for Publishing and Distribution - Cairo, 1, 2006 AD.

11. Thresholds: Gerard Genette from the text to the manas, Abdelhak Belabed, presented by Dr. Said Yaqtin, Publications of Difference and: Arab House of Sciences - Algeria, 1, 1429 AH.
12. Ali Al-Tantawi was the day I was: the industry of jurisprudence and literature, d. Ahmed Ali Ahmed Al Marei' Al-Asiri, Obeikan Library - Riyadh, 4th edition, 2017 AD
13. Ali Al-Tantawi and his views on literature and criticism: Raed Al-Samhouri, Dar Madarak - Riyadh, 2nd Edition, 2012
14. Dictionary of Linguistics, Abd al-Salam al-Masadi, Arab Book House, d., 1984 AD
15. Lisan al-Arab, Jamal al-Din Ibn Manzur al-Ansari, Dar Sader - Beirut, 3rd edition, 1414 AH.
16. Anthropological Linguistics: A Cognitive Perspective to Study the Structure of Iraqi Culture, Jawad Kazem Al-Tamimi, Treasures of Knowledge - Amman, 1st Edition, 2019.
17. Musnad of Imam Ahmad bin Hanbal, Ahmad bin Hanbal Al-Shaibani, investigation by: Shuaib Al-Arnaout, Adel Murshid and others, Al-Resala Foundation - Beirut, 1, 1421 AH.
18. The objective equivalent in the praises of Abi Tammam Al-Ta'i, d. Fawzia Ali Zobari, Journal of the Arabic Language Academy in Damascus, Volume 87, Volume 2, Jumada al-Ula 1433 AH.
19. Notes about the Bedouins and the Wahhabis, collected during wandering in the East, John Lewis Burckhardt, translated by Sabri Muhammad Hassan, the National Center for Translation - Cairo, 1, 2007 AD.
20. From Nafhat Al-Haram, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Fikr - Damascus, d., 1400 AH.
21. Cultural Criticism: A Reading of Arab Cultural Forms, Abdullah Al-Ghadami, Arab Cultural Center - Beirut, 3rd Edition, 2005.

Second: Scientific Theses:

22. The analogy in the memories of Ali Al-Tantawi: a critical rhetorical study, Ibrahim bin Abdullah Al-Majli, Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Riyadh, 1435 AH.
23. The Story in the Literature of Sheikh Ali Al-Tantawi: A Critical Study, Wael bin Youssef Al-Arini, Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Riyadh, 1432 AH.

Third: Websites:

24. The Kingdom's Vision 2030 website: https://cutt.us/3lekI.
25. Makkah Construction and Development Company website: https://cutt.us/8m2bD.
26. The Council of Ministers' Committee of Experts website: https://cutt.us/1cG45.